

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد لمين دباغين سطيف-2-

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الاجتماع والديموغرافيا

## أنثروبولوجيا المغرب العربي

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة علم الاجتماع الثقافي

إعداد الدكتور: نورالدين كوسة

السنة الجامعية: 2014 – 2015.

رقم الصفحة	الفهرس
01	أولاً: فهرس المواضيع.....
03	المقدمــــة.....
04	أولاً- الحقول الدلالية لأنثروبولوجيا المغرب العربي:.....
04	1-مناقشة مسألة التسمية من خلال الإشكاليات التاريخية المؤسسة لثقافة المجتمعات المغربية:.....
09	2- الموضوع وحقل الاشتغال:.....
09	ثانيا- الممارسة الأنثروبولوجية ضمن الفضاء المغربي خلال المرحلة العفوية:.....
10	1- كتابات الجغرافيين والرحالة المغربية:.....
11	أ- كتابات الجغرافي والرحالة الإدريسي 1099-1166م:.....
13	ب- كتابات الرحالة ابن بطوطة 1304- 1377م:.....
15	2- كتابات المفكرين- العلامة ابن خلدون 1332-1406م نموذجاً:.....
17	3- حصيلة نقدية لمسار تشكّل الأنثروبولوجيا ضمن الفضاء المغربي خلال المرحلة العفوية:.....
18	ثالثاً- الفضاء المغربي ميدان خصب للبحث الأنثروبولوجي خلال مرحلة الاحتلال:.....
19	1- مرحلة الدراسات الأنثروبولوجية غير المتخصصة:.....
22	2- مرحلة الدراسات الأنثروبولوجية المتخصصة من بداية الثلاثينيات إلى غاية الاستقلال.....
27	رابعاً- المعرفة الأنثروبولوجية في البلدان المغربية خلال مرحلة الاستقلال:.....

27	1- خلفيات كبح مشروع الأنثروبولوجيا بالبلدان المغربية بعد الاستقلال:.....
28	أ- الصورة المشوّهة عن المعرفة الأنثروبولوجية المرتبطة بالمساعدة على الاحتلال:.....
28	ب- الفهم الخاطئة عن المعرفة الانثروبولوجية على أنّها موضوعات مبتذلة ومتجاوزة:.....
30	3- واقع المعرفة الأنثروبولوجية في الفضاء المغربي منذ الاستقلال إلى الزمن الراهن:.....
30	أ- المعرفة الأنثروبولوجية بالمغرب الأقصى:.....
32	ب- المعرفة الأنثروبولوجية بالجزائر:.....
33	ج- المعرفة الأنثروبولوجية بتونس.....
34	الخاتمة:.....
36	قائمة المراجع:.....

المقدمة:

هذه المطبوعة البيداغوجية الموسومة بـ "أنثروبولوجيا المغرب العربي"، هي في الأصل عبارة عن مادة مقررة على طلبة السنة الثالثة علم اجتماع ثقافي نظام ل.م.د، مندرجة ضمن وحدات التعليم الأساسية للسداسي السادس، الغاية منها حسب ما جاء في وصف المادة المشار إليها ضمن عرض التكوين، هو " معرفة تاريخ الأنثروبولوجيا في المغرب العربي وأهم البحوث والدراسات التي أجريت حول المغرب العربي مع تبين حدودها ونقدها"<sup>1</sup>.

وقد رأينا أن تكون محاور هذه المطبوعة متماشية و وصف المادة وفق ما جاء في عرض التكوين من جهة، وفي الآن نفسه م نسجمة مع الأبعاد الإستيمولوجية ذات الصلة بالأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته، انطلاقا مما توفر من دراسات وأبحاث في الموضوع، بغية مناقشة جملة من القضايا الإشكالية التي تنطوي عليها هذه المادة، وهذا انطلاقا مما تشكّل لدينا من معطيات ذات صلة بالمعرفة الأنثروبولوجية حول هذه المادة الدراسية، بحكم تخصصنا في الأنثروبولوجيا من جهة، وتدريسنا لهذه المادة طيلة ثلاث مواسم جامعية متتالية.

وقد جاءت هذه المطبوعة ضمن أربعة محاور إضافة على مقدمة وخاتمة وقائمة للمراجع، من خلال التركيز على المعرفة الأنثروبولوجية بالفضاء المغربي، ونقصد بذلك كل من تونس والجزائر والمغرب الأقصى، محاولين ضمن هذا السياق وفق منظور نقدي، مناقشة مسار تشكّل المعرفة الأنثروبولوجية بالفضاء المغربي المشار إليه آنفا، من خلال إبراز المراحل الكبرى التي رافقت تبلور المعرفة الأنثروبولوجية بهذا الفضاء، وهذا بالإشارة إلى خصوصيات كل مرحلة وكذا الملامح المميزة لها.

حيث خصصنا المحور الأول لمناقشة الحقول الدلالية لأنثروبولوجيا المغرب العربي من حيث التسمية والموضوع، في حين كان المحور الثاني مخصصا لاستعراض الممارسة الأنثروبولوجية ضمن

<sup>1</sup> - أنظر وصف مادة "أنثروبولوجيا المغرب العربي"، ضمن عنوان وحدات التعليم الأساسية للسداسي السادس الخاص بعرض تكوين علم الاجتماع الثقافي،

الفضاء المغربي خلال المرحلة العفوية، من خلال التركيز على نماذج من الأعلام -رحالة ومفكرين- تجلّت ضمن كتاباتهم ما يمكن اعتباره بذورا جنينية للأنثروبولوجيا، بحكم أنّهم مارسوا الأنثروبولوجيا بشكل عفوي.

وجاء المحور الثالث بغرض تناول مسار تشكّل المعرفة الأنثروبولوجية خلال مرحلة الاحتلال، بالوقوف على مرحلة الدراسات الأنثروبولوجية غير المتخصصة، ثم التعرّيج على مرحلة الدراسات المتخصصة، وأنهيها المطبوعة بالمحور الرابع الذي انصب على رصد راهن هذه المعرفة وما آلت إليه خلال مرحلة الاستقلال، وما رافق ذلك من ملابسات أحاطت بالتصورات والرؤى المرتبطة بواقع المعرفة الانثروبولوجية بالبلدان المغربية.

أولاً - الحقول الدلالية لأنثروبولوجيا المغرب العربي:

تنطوي عملية البحث في أنثروبولوجيا المغرب العربي على جملة من القضايا الإشكالية التي يستبطنها الحقل الدلالي لهذه الأخيرة، ولعل من ضمن تلك القضايا الإشكالية على وجه الخصوص ما يتعلق بالموضوع وكذا التسمية، هذه الأخيرة -التسمية- التي تحتاج إلى شيء من التفصيل، بغية إزالة اللبس الذي يلزم النسق الدلالي المتصل بالبنية الإستمولوجية لأنثروبولوجيا المغرب العربي.

1-مناقشة مسألة التسمية من خلال الإشكاليات التاريخية المؤسسة لثقافة المجتمعات المغاربية:

إنّ القراءة المتمعنة في حيثيات ما يسمى بـ "أنثروبولوجيا المغرب العربي"، يقودنا إلى طرح سؤال جوهري، والذي يتعلق في المقام الأول بمدى مطابقتها- أي أنثروبولوجيا المغرب العربي- للحقل الدلالي الذي تستبطنه هذه التسمية المشار إليها آنفاً، من حيث المحددات الثقافية والاجتماعية المرتبطة بالمجال الجغرافي لما يسمى المغرب العربي، تلك المنطقة الجغرافية الواقعة شمال إفريقيا والتي تضم كل من تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، وهذا ضمن سياق علاقتها-أي المحددات الثقافية والاجتماعية- بالبعد الأنثروبولوجي كبنية إستمولوجية، بما ينطوي عليه هذا البعد الأنثروبولوجي من عناصر بحث وتفكير ذات صلة بمجال الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته.

ولعل من ضمن المداخل التي تفضي إلى تبديد الغموض المتصل بإشكالية التسمية -أي أنثروبولوجيا المغرب العربي- هو المدخل الثقافي في بعده التاريخي، وهو ما يدفعنا إلى الخوض بشيء من التفصيل في مسار تشكّل الثقافة المغاربية ضمن سياق امتداداتها التاريخية، لأنّ أنثروبولوجيا المغرب العربي تشغل على الموضوعات المختلفة ذات الصلة بالجوانب الاجتماعية والثقافية للمنطقة المغاربية، ومن هنا فإنّ تلك الجوانب المشار إليها لا يمكن حصرها ضمن نطاق أو امتداد واحد، من خلال ما يعرف بالمشارب الثقافية العربية وحسب، بل إنّ الأمر أوسع بكثير.

إنّ ثقافة المجتمعات المغاربية المعاصرة من حيث تجلياتها وأبعادها الأنثروبولوجية لا يمكن اعتبارها بأي حال وليدة للفترة الزمنية الراهنة أو القريبة منها، بل هي نتاج لتراكم ثقافي وحضاري

ضمن امتداد تاريخي موغل في القدم، حيث صقلتها محطات تاريخية بارزة في تاريخ البناء الاجتماعي والثقافي للمجتمع المغربي ككل، هذا البناء الذي يضرب بجذوره في عمق التاريخ. وبفعل جملة من الاعتبارات التاريخية، فإن المجتمع المغربي خلال مراحل زمنية قديمة لم يكن كيانا اجتماعيا منقسما إلى دول مستقلة وقائمة بذاتها، إذ لم يكن بالإمكان فصل الكيانات الاجتماعية القاطنة بالمنطقة المغربية ضمن إطار التقسيمات التي تمثلها حدود الدول الحالية، لأن الفصل بين المجتمعات لم يكن يحكمها منطوق الحدود السياسية الحالية، بل كانت تخضع لمنطق تمدد وتقلص الوعاء البشري على منطقة جغرافية معينة.

وإذا كان البناء الاجتماعي للمجتمع المغربي لم يكن منة من أحد أو نتيجة احتكاك سكان المنطقة بالعناصر الأجنبية، بل هو بناء ذاتي أنتجته عوامل داخلية، حيث يرى عبد القادر جفلول أن "هذا البناء أنشئ على أساس نضج داخلي"<sup>1</sup>، فإنه على نقيض ذلك فيما يتعلق بالبناء الذي أفرز تشكل ثقافة المجتمعات المغربية المعاصرة بأبعادها وتجلياتها الأنثروبولوجية.

لأن القراءة المتمعنة في خصائص ثقافة المجتمعات المغربية المعاصرة، من خلال جملة من العناصر المشكّلة لها<sup>2</sup>، يقودنا إلى حقيقة مفادها أنها - أي ثقافة المجتمعات المغربية - ثمرة تمازج لمجموعة من الروافد الثقافية على مر الأزمنة الطويلة والمتعاقبة، من أصول إفريقية ومتوسطة وعربية إسلامية، انصهرت في بوتقة واحدة وشكّلت ما يعرف بالثقافة المغربية من خلال عاملي التراكم والانصهار.

<sup>1</sup> - جفلول عبد القادر: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، لبنان، دار الحدائق للنشر، ط2، 1988، ص6.

<sup>2</sup> - إن البحث في الإشكاليات التاريخية لتبلور ثقافة المجتمعات المغربية المعاصرة محفوف بالمخاطر والصعوبات، لعدم عثورنا على دراسات أنثروبولوجية

سابقة خاضت في هذه الإشكالية، ولذا فسنحاول معالجة هذه الإشكالية من خلال استقراء بعض المراجع التاريخية ذات الصلة بالتاريخ الاجتماعي والحضاري للمجتمع المغربي.

إنّ هذا الامتزاج والانصهار الثقافي الذي تم خلال مراحل تاريخية طويلة ومتتابعة أسهم في بلورة وتشكيل معالم الثقافة المغاربية المعاصرة، والذي يعبر عنه أنثروبولوجيا بالتثاقف-*l'acculturation*، حيث يستعمل هذا المصطلح للدلالة والإخبار "عن آثار تماس ثقافي"<sup>1</sup>، هذا التماس والامتزاج الثقافي الذي يعرف بالتثاقف إنما يتم عادة بين الشعوب من ثقافات مختلفة، وكذا بين مجموعات بشرية بفعل الاحتكاك والتلاقي، بغض النظر عن عوامل هذا الاحتكاك وأسبابه<sup>2</sup>.

ولذا فإنّ البحث في تاريخ المنطقة المغاربية بحدودها الجغرافية الحالية يجعلنا نقف على جملة من الأحداث والمحطات التاريخية المتعلقة بهذا التلاقي والامتزاج الثقافي، الذي أسهم في بلورة وتشكيل ثقافة المجتمع المغاربي من خلال عامل التأثير والتأثر المتبادل، ضمن إطار ما يسمى أنثروبولوجيا بالتثاقف، حيث تجمع الدراسات المهمة بتاريخ المنطقة المغاربية أنها كانت منذ القديم منطقة جذب وعبور للعناصر الأجنبية شعوبا وجماعات، وقد كان هذا الحضور الأجنبي سواء بغرض تجاري أو بغرض استعماري استيطاني، أو في شكل هجرات وحركات سكانية بفعل عوامل مرتبطة بالحروب بحثا عن الأمن، ومرتبطة كذلك بعوامل اقتصادية كالبحث عن أماكن الكلا والماء بغرض الاستقرار.

حيث سجلت الدراسات التاريخية أول امتزاج حضاري وثقافي في تاريخ المنطقة مع قدوم الفينيقيين من الشرق الأوسط- منطقة لبنان حاليا-، وتأسيس عاصمتهم قرطاج سنة 814 قبل الميلاد لأغراض تجارية وتوسعية في الآن نفسه<sup>3</sup>، حيث حملوا معهم موروثهم الثقافي بعناصره الدينية

<sup>1</sup> - كوش دنيس: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مراجعة الطاهر لبيب، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2007، ص93.

<sup>2</sup> - للتعلم أكثر فيما يتصل بمصطلح التثاقف-*l'acculturation* - أنظر:

- Bonte pierre et Izard Michel: Dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie, Editions Puf, 2<sup>ème</sup> Éditions, Paris, 2002, p 1-2.

<sup>3</sup> - للإطلاع على تفاصيل قدوم الفينيقيين إلى منطقة شمال إفريقيا وتأسيسهم لقرطاج أنظر فصول الدراسة الآتية:

- غانم محمد الصغير: التوسع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1992.



والحضارية، وتمتزج هذه العناصر الثقافية الوافدة إلى المنطقة مع ثقافة السكّان الأصليين، مشكلة بذلك أحد أوجه الامتزاج الحضاري والثقافي<sup>1</sup>.

وقد أعقبت هذه المحطة الهامة- التي أتينا على ذكرها- في تاريخ تبلور ثقافة المجتمع المغربي من خلال عاملي التراكم والانصهار، ممثلا في الامتزاج الحضاري والثقافي محطات أخرى لا تقل أهمية عنها، من حيث إسهامها في تطعيم الثقافة الأصلية ببعض العناصر الثقافية الوافدة<sup>2</sup>، فكانت حركة الفتح الإسلامي للمنطقة من ضمن هذه المحطات البارزة، التي أحدثت نقلة نوعية في جملة من التصورات والرؤى المتعلقة بثقافة السكّان الأصليين، حيث طعمتها بعناصر ثقافية جديدة، شكّلت تحولا واضحا في جوهر هذه الثقافة خاصة على المجال الديني وما يرتبط به من ممارسات.

وإذا كان الفتح الإسلامي للمنطقة المغاربية مع أوائل القرن الثامن الميلادي قد شكّل إحدى المحطات البارزة في تاريخ ثقافة المجتمع المغربي، بما هيئه من عوامل معنوية أدت إلى تلاحم وانصهار ثقافي، صنع ملامح جديدة طبعت ثقافة سكّان المنطقة المغاربية بشكل عام، فإن مجيء الهلالين مع مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ضمن سياق ما يعرف تاريخيا بالهجرة الهلالية أو تغريبة بني هلال<sup>3</sup>، قد عمق أوجه الامتزاج الحضاري والثقافي بين الوافدين الجدد من العرب الهلالية ونظرائهم من السكّان الأصليين.

<sup>1</sup> - حول أوجه هذا الامتزاج الحضاري والثقافي أنظر: - غانم محمد الصغير: المساهمة الحضارية البونية في المملكة النوميديّة، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، قسم

التاريخ، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية، 2005-2006، ص 96-100.

<sup>2</sup> - لقد فضلنا أن لا نقف عند المرحلتين الرومانية والبيزنطية تجنبنا للإطالة من جهة، ولكون تأثيراتهما من وجهة نظرنا الخاصة على ثقافة سكّان المنطقة لم تكن

بنفس حجم تأثيرات الوجود الفينيقي الذي أتينا على ذكره.

<sup>3</sup> - حول الظروف التاريخية المرتبطة بالهجرة الهلالية إلى شمال إفريقيا- البلدان المغاربية- أنظر:

- بوسماحة عبد الحميد: رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، الجزء الأول، الجزائر، دار السبيل للنشر والتوزيع، 2008، ص 63-78.

وقد تجسد ذلك في تلاحم العادات والتقاليد والأعراف، كما تجسد في امتزاج الموروث الشفوي في بعده اللامادي من أشعار وأمثال وحكم، وبرغم الانتقادات الموجهة من المدرسة الكولونيالية بشأن الآثار المترتبة عن هجرة الهالبيين إلى شمال إفريقيا، من حيث تداعياتها السلبية على الاقتصاد والمجتمع، كون الهالبيين حسب وجهة نظر المدرسة الكولونيالية أسهموا في شيوع البداوة وتخريب العمران، وتحويل الاقتصاد من اقتصاد زراعي مزدهر إلى اقتصاد رعوي منكمش، فإن هذه الآراء كما يرى الأستاذ محمد نجيب بوطالب " تنطوي على فكرة إثبات الركود الاجتماعي والانقسام السياسي"<sup>1</sup>، وهي بهذا المعنى لا تخرج عن سياق التهجم غير الموضوعي الذي تبديه المدرسة الكولونيالية حيال بعض القضايا التاريخية للمنطقة المغاربية، خدمة لأغراض تصب في صالح رؤى وتصورات هذه المدرسة.

وضمن إطار المنحى التاريخي التصاعدي الذي طبع الفضاء الثقافي للمجتمع المغربي من خلال مسيرة التآقف، عبر عملية التأثير والتأثر المتبادل بالثقافات الوافدة، كانت من ضمن المحطات التاريخية البارزة التي لا يمكن إغفالها من حيث علاقتها بثقافة المجتمع المغربي والمساهمة في تبلورها، قدوم ساكني الأندلس الذين يعرفون بالمورسكيين<sup>2</sup> بعد سقوط غرناطة سنة 1492، حيث استقروا في عدد من المدن على مستوى كامل بلدان المنطقة المغاربية، ناقلين معهم موروثهم الثقافي وتقاليدهم العريقة، خاصة ما تعلق بالنشاط الحرفي، وبعض الأشكال من الممارسات الثقافية ذات البعد المعنوي.

وقد أسهم هذا الحضور الثقافي للمورسكيين بقسط لا يستهان بأهميته في إثراء ثقافة المجتمعات المغاربية، وتطعيمها ببعض العناصر الثقافية الجديدة الوافدة عليها، والتي خدمت مسيرة التراكم والتبلور التي عرفتها هذه الثقافة عبر امتدادها التاريخي الطويل، هذه المسيرة التي لم تتوقف باحتكاكها بالعناصر السكانية القادمة من الأندلس ضمن ما عرف بالهجرة الموريسكية إلى شمال

<sup>1</sup> - بوطالب محمد نجيب: سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2002، ص36.

<sup>2</sup> - سعيدوني ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني -، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 127-147.

إفريقيا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، بل استمرت خلال القرون اللاحقة ضمن سياق التأثير والتأثر والانصهار والتراكم، حيث توجت في نهاية المطاف بتشكّل الملامح الكبرى لما يعرف بثقافة المجتمع المغربي.

إنّ تركيزنا في إطار استعراضنا للإشكاليات التاريخية المؤسّسة لثقافة المجتمع المغربي على بعض المحطّات التاريخية دون غيرها، لا يعني المفاضلة بين الروافد الثقافية التي أسهمت في بلورة هذه الثقافة، بل إنّ هذا الانتقاء ناشئ من اقتناعنا على ضوء قراءتنا للمعطيات المتصلة بالثقافة المغربية من منظورها الأنثروبولوجي، أنّها ذات صلة بتلك المحطّات التي أتينا على ذكرها، ممثلة في بعض السمات و الملامح الثقافية المشتركة التي تشكّلت بفعل التأثير والتأثر ضمن سياق الثقافة.

وكخلاصة لما سبق استعراضه فإنّ الأخذ بتسمية "أنثروبولوجيا المغرب العربي" يمثل من وجهة النظر الأنثروبولوجية، انطلاقا من المكون الثقافي والاجتماعي الراهن المرتبط بالمجال الجغرافي لما يسمى المغرب العربي، بمثابة إقصاء لها مش واسع من العناصر الاجتماعية والثقافية المادية واللامادية منها، ضمن امتداداتها التاريخية المبنية على عمليتي التراكم والانصهار، والتي أفضت إلى تشكيل الهوية الثقافية والاجتماعية الراهنة للمنطقة المغربية، ومن هنا فإنّه لا يمكن من الواجهة الأنثروبولوجية اعتماد تسمية أنثروبولوجيا المغرب العربي، بل من الأجدر أن يطلق عليها "الأنثروبولوجيا المغربية"، باعتبار أنّها التسمية المناسبة التي تفي بالدلالات الإبستمولوجية ضمن سياقها الأنثروبولوجي.

## 2- الموضوع وحقل الاشتغال:

هي كل ما كتب من الواجهة الأنثروبولوجية، وكل ما يمكن تصنيفه ضمن سياق الأعمال الأنثروبولوجية، حول المنطقة المغربية - أي تونس، الجزائر، المغرب الأقصى -، منذ بداية تبلور الأنثروبولوجيا في شكلها الجيني إلى غاية الزمن الراهن، من دراسات وأبحاث فردية أو جماعية، سواء من قبل باحثين ومؤلفين أجنب أو من قبل باحثين محليين، والتي تندرج ضمن سياق

الدراسات الأكاديمية المتخصصة، أو خارج نطاق الدراسات المتخصصة في شكل تأليف وأعمال  
مستقلة.

ثانيا- الممارسة الأنثروبولوجية ضمن الفضاء المغربي خلال المرحلة العفوية:

إذا كانت الأنثروبولوجيا كعلم حديث نسبيا تتأسس على عملية البحث في ثقافة المجتمعات، من خلال التركيز على الممارسات الإنسانية بشقيها المادي والمعنوي، سعى لفهم الذهنيات القابعة وراء تلك الممارسات والوقوف على القوانين التي تحكم مختلف الظواهر الثقافية والاجتماعية بإيجاد تفسيرات علمية لها، وعلى اعتبار أنّ عملية البحث في الممارسات الإنسانية ليست وليدة الزمن الراهن بل هي عملية قديمة قدم الإنسان نفسه ومرتبطة بوجوده، فقد رأى المهتمون بتاريخ الأنثروبولوجيا المغربية على وجه الخصوص في بعض الأعمال التي كتبت منذ أزمنة سابقة لظهور الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته بوقت طويل، بمثابة بداية فعلية للأنثروبولوجيا في الفضاء المغربي بشكل غير معلن ضمن ما يمكن أن نسميه بـ"المرحلة العفوية"، وهو ما يؤيد الفرضية القائلة بأنّ الأنثروبولوجيا برغم كونها من العلوم الحديثة فإنّ لها امتدادات تاريخية.

والجدير بالإشارة أنّ ما يسمى بالمرحلة العفوية والتي لا يمكن تحديد بداية دقيقة لها إلاّ بالاعتماد على ما وصلنا من شواهد كتابية في هذا الشأن، هي تلك المرحلة الطويلة التي شهدت ميلاد جملة من الكتابات والدراسات في تخصصات علمية مختلفة، وعلى رأسها الكتابات التاريخية والآداب والرحلات، هذه الأخيرة التي عنيت بتاريخ الشعوب وثقافتها، وكذا عاداتها وتقاليدها ومختلف ممارساتها الدينية والاحتفالية.

وإذا كان من المتعذر رصد كل ما كتب في هذا الموضوع، والإتيان على ذكر كل الأعلام الذين دونوا هذه الكتابات، فإننا سنكتفي بذكر بعض الشواهد والنماذج البارزة عبر هذا التاريخ الطويل والتي حضيت بإشادة وإجماع المهتمين بالأنثروبولوجيا بشكل عام والأنثروبولوجيا المغربية على وجه الخصوص، كونها نماذج تركت بصمات قوية في بلورة ومراكمة التراث الفكري الأنثروبولوجي في الفضاء المغربي خلال مرحلته العفوية.

## 1- كتابات الجغرافيين والرحالة المغاربة:

لقد سجلت الدراسات المهمة بتاريخ الرحلات في العالم منذ القديم الأدوار الإيجابية التي أداها الرحالة المغاربة في بناء جسر التواصل بين الشعوب، من خلال الكشف عن الطرق والمسالك التجارية، ونقل صور حية تتعلق بحياة الشعوب وما تشهده من أحداث هامة في جميع المجالات، وباعتبار أن موضوع الرحلة والرحالة لم يكن حكرا على مجتمع دون آخر، إذ لم يخل مجتمع من المجتمعات على مر التاريخ من حضور رحالة، مع وجود اختلاف وتباين بين هؤلاء الرحالة، والذي يتعلّق في المقام الأول بمستوى الشهرة التي بلغها كل رحالة، بناء على الصدى الذي خلفته رحلته، من خلال الوقع الذي تتركه هذه الرحلة لدى القارئ، وكذا انطلاقا مما تقدمه هذه الرحلة من مادة معرفية ذات صلة بمختلف العلوم والقضايا.

وفي هذا الإطار فإنه لا يمكن إغفال أهمية الرحلات في التأسيس للعلوم المعاصرة ومن ضمنها الأنثروبولوجيا، وهو ما خدم المعرفة الأنثروبولوجية وغدّى التراث النظري لها، فبرغم حداثة هذا الفرع المعرفي الذي سجل نشأته الفعلية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أن التراث الفكري المغربي قد حفل بعدد من الرحلات التي أسهمت في رصد مظاهر حياة الشعوب والجماعات الإنسانية المختلفة التي عاشت في بقاع متباينة من أنحاء العالم والمنطقة المغربية على وجه الخصوص، كما نقلت تلك الرحلات صورا حية عن الثقافات المغايرة للبيئات الثقافية المحلية- المغربية- بمختلف تجلياتها وتمظهراتها، وهو ما أفضى إلى تكوين رصيد معرفي معتبر اندرج ضمن سياق الدراسات الوصفية والذي يعرف بالإنثوغرافيا، إذ تضمنت تلك الرحلات جملة من العناصر الأنثروبولوجية، وهو ما اعتبره الأنثروبولوجيون المعاصرون بمثابة بذور جنينية للأنثروبولوجيا انطوت عليها تلك الرحلات.

وإذا كان من المتعذر الإشارة إلى جميع الرحالة المغاربة بشكل منفصل وتناول ما ورد في رحلة كل واحد من هؤلاء على حدة ولو بشكل مختصر، فسوف نكتفي بالحديث عن رحالتيين بارزين امتازا بشهرة واسعة على المستوى العالمي، من خلال ما تركاه من بصمات قوية في بلورة وتشكيل

التراث الأنثروبولوجي في شكله الجيني وتطعيمه وإثرائه ببعض المعطيات التي تدخل ضمن صميم اهتمامات الأنثروبولوجيا، الأمر الذي جعل رحلتيهما تندرج ضمن سياق ما أسميناه بالممارسة الأنثروبولوجية بشكل عفوي.

أ- كتابات الجغرافي والرحالة الإدريسي 1099-1166م:

يندرج كتاب الجغرافي والرحالة الإدريسي الموسوم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ضمن أهم الكتابات الجغرافية التي تركت وقعا إيجابيا في تاريخ الجغرافيا والرحلات على المستوى العالمي، حتى أنه عدّ أشهر كتاب جغرافي على الإطلاق بعد كتاب الجغرافي اليوناني بطليموس، وقد عرف كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق في الأدبيات العربية واللاتينية بالكتاب الروجري، لي عبر عن تاريخ تأليف هذا الكتاب في بلاط مسيحي، من طرف الجغرافي المسلم الشهير الشريف الإدريسي، وعرف كتابه روجا في العالمين المسيحي والإسلامي<sup>1</sup>.

وبرغم أن الإدريسي قد أشتهر حسب ما تذكر الدراسات المهمة بالرحلات<sup>2</sup>، بتأليفه لكتابين جغرافيين وهما روضة الأنس ونزهة النفس المعروف بكتاب المسالك والممالك، وهو كتابه الثاني الذي ألفه بعد كتابه الأول نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، إلا أن شهرته قد صنعها هذا الأخير الذي كان قد أنهاه سنة 1153 ميلادية، ولعل مرد الشهرة التي حازها كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق إنما تكمن في ما تضمنه من معلومات قيمة ومعارف جديدة ذات صلة بما يمكن تسميته في الزمن الراهن بالجغرافيا البشرية وكذا جغرافيا الأقاليم.

ومن جهة ثانية فإن هذا الكتاب قد أُعتبر بمثابة العمل الموسوعي حيث اخذ كثير من الوقت والجهد " إذ لم يكن عمل الجغرافي سهلا، كونه استغرق خمسة عشر سنة، أرسل خلالها عدّة ملاحظين إلى عدّة أمكنة في الشرق والغرب والشمال والجنوب ليأتوا له بتقارير دقيقة قام على إثرها برسم خريطة للعالم على قطعة فضية، ثم قام بتقسيم العالم إلى سبعة أقاليم في كتابه"<sup>3</sup>، ولم يكتف

<sup>1</sup> - عمارة علاوة: دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 203.

<sup>2</sup> - شوقي ضيف: شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط3، دت، ص 21.

<sup>3</sup> - عمارة علاوة: المرجع السابق، ص 204، 205.

الإدريسي بالمعلومات والملاحظات التي زوده بها الرحالة الذين أوفدهم إلى مختلف البلدان والأقاليم فكتبوا له تقارير بما شاهدوه، بل "أضافها إلى ما شاهده بنفسه في البلدان، وجمع أكثر ما كتب في هذا العلم، واتخذ في كل ذلك مادة لتأليف كتابه"<sup>1</sup>.

وقد امتاز كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ب"طريقة العرض الجغرافي القائم على المشاهدة، وتفصيل أحوال الأمم والسكان، وبيان كل ما في بلدة من عجائب البنيان والآثار، ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامي، بل يضم إليه وصفا دقيقا للعالم المسيحي في أوروبا"<sup>2</sup>، ولذا كان من المنطقي أن يدرج هذا العمل الجغرافي المتميز بمعلوماته الموسوعية عن جغرافية الأقاليم المختلفة وأحوال ساكنيها وخصوصياتهم المورفولوجية والاجتماعية والثقافية، ضمن سياق الممارسة الأنثروبولوجية في شكلها العفوي.

ب- كتابات الرحالة ابن بطوطة 1304-1377م:

يحضى الرحالة ابن بطوطة بإجماع منقطع النضير على مستوى أغلب الكتابات التي اهتمت بموضوع الرحلات، باعتباره أحد أشهر الرحالة على مر التاريخ الذين حازوا على إعجاب وتقدير الدارسين لمضمون رحلته المسماة "تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، بفعل ما انطوت عليه رحلته من معلومات وافرة ومتنوعة ذات صلة بمختلف المجالات، وفي الآن نفسه فإن رحلته قد أُعتبرت من ضمن المصادر الكتابية الثمينة التي تتوفر على أفكار ومعطيات هامة ونادرة، يمكن أن تدوم المعارف التاريخية والسياسية والجغرافية والأنثروبولوجية بشكل مباشر وغير مباشر، وهو ما ساهم في نقلها إلى لغات العالم المختلفة عن طريق الترجمة، وقد عبر الباحث المغربي عبد الهادي التازي عن ذلك باعتبار أنه قام بتحقيق رحلة ابن بطوطة ونشرها في خمسة مجلدات بالقول "... لقد ناهزت الترجمات العشرين، ونحن على يقين أن هناك ترجمات أخرى لا نعرفها"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 19.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه: ص 20.

<sup>3</sup> - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه



وعن أهمية هذه الرحلة ومكانتها نجده يقول "...إن هناك اهتماما زائدا بالرحلة عبر العصور سواء من لدن الحكّام أو لدن العلماء والمثقفين، بحيث أنه لم تخل فترة من الفترات دون أن نجد فيها أثرا للرحلة نسخا أو بيعا أو شراء، بل إننا كنا نلاحظ في بعض الأحيان أن تواريخ النسخ تتقارب فيما بينها، ومعنى هذا أن هناك طلبا متواليا على الرحلة من طرف هواتها والمعجبين بها، من طرف الذين وجدوا فيها ما يرضي استطلاعهم ويزيد في معلوماتهم..."<sup>1</sup>، ناهيك عن اهتمام المستشرقين منذ أوائل القرن التاسع عشر بهذه الرحلة "فنشروا منها قطعاً وأجزاء، ثم نشرت كاملة مع ترجمة فرنسية سنة 1859،... وترجمت إلى الألمانية سنة 1912 م، وكل هذه العناية لما تحوي من طرافة حقيقية في الخبر وقصّه، وفي الحكاية عن البلاد القريبة والبعيدة في آسيا وإفريقيا"<sup>2</sup>.

ولعل ما يجب التنبيه إليه أن المعلومات التي نقلها الرحالة ابن بطّوطة ضمن ثنايا رحلته تتميز بخصوصية جعلتها تختلف في تفاصيلها عن عدد من الرحلات الأخرى، وتتمثل هذه الخصوصية في كون معلومات رحلته قد تأسست على ملاحظاته المباشرة المبنية على المعيشة المستمرة، بحكم أن ابن بطّوطة قد عرف عنه الإقامة والاحتكاك المباشر والمستمر بالمجتمعات التي ارتحل إليها، "حيث كان يندمج اجتماعيا ومعيشيا وسلوكا مع الشعوب التي ارتحل إليها وكان مزواجا، فأى بلد يحل بها يتزوج من واحدة من نساها"<sup>3</sup>، كما عرف عن ابن بطّوطة كذلك ممارسته لمهنة القضاء في عدد من الأقاليم من بينها جزر المالديف<sup>4</sup>، وهذا ما جعله الأقدر على نقل معلومات دقيقة وواقعية تتصل بدقائق الأمور ومختلف تفاصيلها الجزئية.

ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، المجلد الأول، 1997، ص 103.

<sup>1</sup> - المرجع نفسه: ص 73.

<sup>2</sup> - شوقي ضيف: المرجع السابق، ص 98.

<sup>3</sup> - الجبّاي علي عبد الله: الفكر الأنثروبولوجي في التراث الفكري العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996، ص 350.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 352.

أما من حيث أهمية رحلة ابن بطوطة في إثراء التراث الأنثروبولوجي في مرحلته العفوية، فلا تكاد تخلو كتابات المتخصصين في الأنثروبولوجيا من الإشارة إلى ذلك<sup>1</sup>، إذ "تتصف كتابات الرحالة ابن بطوطة بأهمية خاصة، لما اتّسمت به بالطابع الإناسي الأنثروبولوجي، فقد اهتم بوصف دقائق الأمور لكل من ا لبنى الاجتماعية، والثقافية والمعتقدات الروحية لكافة الشعوب التي ارتحل وعاش بين ظهرانيها"<sup>2</sup>، وأضحت المعلومات التي نقلها ابن بطوطة ضمن رحلته بمثابة المادة الخبيرة الثمينة، على اعتبار أنها تمثل أرضية معرفية في الزمن الراهن للقيام بدراسات أنثروبولوجية.

لأنّ فهم الممارسات الفردية والجماعية وشرح الأبنية الثقافية والاجتماعية التي تؤطّرها وكذا الدّهنيات القابعة خلفها، لا يمكن أن يتم دون تشكيل صورة حية وبناء استنتاجات منطقية حول ماضي الأفراد والجماعات موضوع الدراسة، فالأخبار الواردة ضمن الرحلات "ستكون بالغة القيمة إذ تمكّننا من أن نعرف التغيرات التي حدثت منذ كتابتها، وتهدينا إلى الاتجاهات التي علينا أن ننظر إليها لمعرفة التغيّر المقبل"<sup>3</sup>.

## 2- كتابات المفكرين: العلامة ابن خلدون 1332-1406م نموذجاً:

إنّ الحمولة المعرفية التي يحوزها المنجز العلمي الخلدوني ممثلاً في المقدمة بإمكانها أن تشكّل على الأقل أرضية نظرية للنهوض بالأبحاث الأنثروبولوجية في البلدان المغاربية بوجه خاص والعربية على العموم، بحكم أنّ المهتمين بالأنثروبولوجيا في هذه البلدان يشكون من ضعف الزاد المنهجي والتنظيري من جهة، وعدم ملائمة المناهج والنظريات الغربية لدراسة الواقع المحلي من جهة ثانية، وضمن هذا السياق يمكن إدراج شهادة الأنثروبولوجي الأمريكي كارلتون س. كون، الذي يفترض حسب وجهة نظره " أنّ العرب سيجدون تحليل المواد الأنثروبولوجية مألوفاً لهم، فابن خلدون في مقدّمته قد حلّل البناء الاجتماعي لقبائل الصحراء، والبناء الاجتماعي للمدن تحليلاً عميقاً، وقد

<sup>1</sup> - كارلتون س. كون: أنثروبولوجيا للعرب، مؤتمر الثقافة الإسلامية المنظم بجامعة برنستون، جمع وتقديم خلف الله محمد، الصادر ضمن كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1962، ص 292.

<sup>2</sup> - الجباوي علي عبد الله: المرجع السابق، ص 349.

<sup>3</sup> - كارلتون س. كون: المرجع السابق، ص 292.

أدرك ما لم يدركه معظم العلماء المتأخرين من أنّ بين البيئة وطرق المعيشة الإنسانية والبناء الاجتماعي علاقة سببية<sup>1</sup>.

ولذا فإنّ تصفّح مقدّمة ابن خلدون والتّمعن فيما ورد فيها من رؤى وأفكار ضمن ثنايا فصولها يجعلنا نقف على جملة من الحقائق مفادها، أنّ تلك الرؤى والأفكار التي صاغها هذا الأخير لا يمكن عزلها بأي حال عن السياق الفكري والحضاري الذي عاش فيه، والذي كانت له تأثيرات مباشرة وغير مباشرة على نسقه الفكري وعلى نظريته لمجتمعات عصره وبيئته التي عاش فيها، والتي يمكن اعتبارها بمثابة رد فعل مباشرة على جملة من الأحداث والأوضاع المعاصرة له، هذه الأخيرة التي يتشابك فيها الوضع السياسي بالوضع الاقتصادي والوضع الاجتماعي بالوضع الثقافي والديني.

ولذا فإنّ جزءا هاما من أفكار ابن خلدون الواردة في مقدّمته قد انطلقت من مقارنته للمجتمعات المغاربية التي عاش فيها، أكثر من مقارنته لمجتمعات غربية عن نسقه الفكري والحضاري، وهي بهذا المنحى تمثّل تعبيرا صريحا ينم عن قلق وهم فكري يعكس وعيه العميق بمشاكل مجتمعه من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ تلك الأفكار الواردة في مقدّمته تعكس أيضا استجابته لاستفزازات مشاكل عصره وتفاعله مع أحداثها، حيث تنطوي على وعيه كمتّقف نخبوي بالتزاماته الأخلاقية تجاه بيئته الاجتماعية والثقافية بشكل خاص ومحيطه الحضاري بشكل عام، ومن هنا يبدو جليا أنّ ابن خلدون قد "رسم لنفسه خطأ نظريا واضحا"<sup>2</sup>، وهو ما جعله يتميز عن مفكّري عصره.

فليس غريبا أن يشعر القارئ لأفكار ابن خلدون بجرئتها وعمقها في الإفصاح عن قناعاته، بما لا يدع مجالاً للشك في التزامه بقضايا عصره، من خلال إحساسه بمشاكل مجتمعه بوصفه مثقفا عضويا وفق طرح غرامشي، الذي يضيف صفة المثقف العضوي على كل من يندمج في مشاكل عصره، ويذهب في تعريفه للمثقف العضوي على "أساس المكانة والوظيفة التي يقوم بها هذا المثقف

<sup>1</sup> - كارلتون.س. كون: المرجع السابق، ص 302.

<sup>2</sup> - الخوري فؤاد إسحاق: مذاهب الأنثروبولوجيا وعبقريّة ابن خلدون، دار الساقي، بيروت، ط1، 1992، ص35.

داخل البنية الاجتماعية ونظام علاقاتها الاجتماعية"<sup>1</sup> ، وهو ما يجعله بهذه الصفة حاملا لمشاكل عصره ومضطلعا بهموم وانشغالات أفراد نسقه السوسيوثقافي.

ومن هذا المنطلق ليس غريبا كذلك أن تكون لتحليلات ورؤى ابن خلدون تأثيرات فيما جاء من بعده من بحوث ودراسات أنثروبولوجية، بفعل ما تميزت به من خصوصيات معرفية أتاحت إمكانية الاعتماد عليها كأرضية لبعض الفرضيات والاستنتاجات المسبقة حول الفضاء الاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي كانت محورا للقراءات الخلدونية<sup>2</sup> ، إذ "يعالج ابن خلدون القرابة والسياسة والدين معالجة أنثروبولوجية اجتماعية، حيث كانت النظرة التي ارتكز عليها في دراساته هي التي تعرف الآن بـ النظرة الكلية الشاملة ودراسته للعصبية وعلاقتها العضوية بالنسق السياسي تدخل في مجال الأنثروبولوجيا الحضرية، والطريقة التي يعتمد عليها في المعالجة هي طريقة أقرب إلى حد كبير إلى الطريقة الأنثروبولوجية"<sup>3</sup> ، ومع ذلك فإن آراء ابن خلدون لا يمكن تعميمها أو تطبيق نتائجها بشكل مطلق دون تمحيص أو حذر في الأخذ بفرضياتها.

### 3- حصيلة نقدية لمسار تشكّل الأنثروبولوجيا بالفضاء المغربي خلال المرحلة العفوية:

إنّ محاولتنا التي جاءت للحديث عن ما أسميناه بالأنثروبولوجيا العفوية في الفضاء المغربي، من خلال التركيز على الرحالتين الإدريسي وابن بطّوطة كمنموذجين إضافة إلى ابن خلدون، إنّما مرده إلى جملة من الأسباب الموضوعية ذات الصلة بالمكانة التي احتلّها هؤلاء الأعلام المشار إليهم، في بلورة التراث الفكري الأنثروبولوجي في الفضاء المغربي خلال مرحلته العفوية، وهو ما أفضى إلى

<sup>1</sup> - بلحسن عمار: أنتلجنسيا أم مثقفون، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1986. ص 36.

<sup>2</sup> - أعتبرت أفكار ابن خلدون حول العصبية بمثابة بذور جنينية للأنثروبولوجيا السياسية أنظر:

- حمداوي محمد: القرابة والسلطة عند ابن خلدون- الدور الجنينية للأنثروبولوجيا سياسية-، الملتقى الوطني حول "مستقبل الأنثروبولوجيا في الجزائر" - بتيميمون،

في 22، 23، 24، نوفمبر 1999-، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2002، ص 33-49.

<sup>3</sup> - السيد أحمد حامد: تأثيرات ابن خلدون في الأنثروبولوجيا الاجتماعية - قراءة أنثروبولوجية للمقدمة-، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، المجلد

الخامس عشر، العدد الثالث، خريف 1987، ص171.

رسم مكانة مرموقة لهؤلاء ضمن الكتابات العربية وكذا الكتابات الغربية المعاصرة، والتي طبعها الإشادة والإعجاب معا.

ففيما يتعلق بالإدريسي فإنه لا يمكن إنكار المكانة التي حاز عليها في هذا الشأن ، وقد افرد له الباحث علي عبد الله الجباوي عدد من الصفحات ضمن كتابه<sup>1</sup>، لشرح جهوده ومساهماته الكبيرة في وصف أحوال الأمم والشعوب، والتي كان لها دورا إيجابيا في إثراء رصيد التراث الأنثروبولوجي العربي بشكل عام والمغربي على وجه الخصوص وتغذيته بعناصر بحث وتفكير جديدة بالتبويه.

أما عن رحلة ابن بطوطة فقد اعتبرها المؤرخ البريطاني الشهير روس دون أنها جاءت "... في مستوى لا يقل أهمية عما سطر في كتاب ماركوبولو، ولا نتعدى الحقيقة إن قلنا - والحديث لروس دون- أن ابن بطوطة كان أكثر عاطفة ووجدانية في كتابه، وأن رحلاته غطت كثيرا من الأماكن، بينما قام ماركوبولو برحلاته كإنسان غريب في بلاد أجنبية..."<sup>2</sup>، كما أن رحلته والرأي لروس دون دائما أضحت منذ القرن التاسع عشر تمثل "... مصدرا تتكرر الإشارة إليه في كثير من المؤلفات التاريخية، باعتبارها رواية لشاهد رؤية وحيد لأماكن كثيرة في تلك الفترة..."<sup>3</sup>.

ولم يشذ ابن خلدون عن هذه القاعدة من حيث الصدى الإيجابي الذي تركه في الفكر الأنثروبولوجي الغربي المعاصر، وهذا "... إذا عرفنا أن البناء النظري الذي وضعه في المقدمة في معالجة العصبية والسياسة والدين قد اقتبسه وليم روبرتسون سميث (1846-1894) وانتقل إلى الأنثروبولوجيين البريطانيين ليعتمدوا عليه في دراساتهم، وبخاصة إيفانز بريتشارد، فقد كانت أعماله مرحلة أولية لانتقال نظريات ابن خلدون وبخاصة عن القرابة والسياسة إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية"<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - الجباوي علي عبد الله: المرجع السابق، ص 336-344.

<sup>2</sup> - أحمد علي إسماعيل: مراجعة في كتاب ابن بطوطة، رحلة مسلم من القرن الرابع عشر لروس دون، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت،

المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، خريف 1987، ص 360.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه: ص 360.

<sup>4</sup> - السيد أحمد حامد: المرجع السابق، ص 172.

وبرغم ما ذكرناه آنفا فإنّ هذا لا يندف بأي حال وجود نماذج وإسهامات أخرى في هذا الشأن، ربما قد لا تقل أهمية عن النماذج التي اقتصرنا عليها، وعلى اعتبار أنّ الفترة الفاصلة بين المرحلة العفوية التي أنهيناها بالحديث عن ابن خلدون وتاريخ ظهور الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته ومُعترف به ضدّ من الفضاء الأكاديمي العالمي قد ناهزت أربعة قرون، وهي فترة زمنية طويلة كانت كفيلة بظهور عشرات الكتابات الأخرى ضمن الفضاء المغربي في تخصصات مختلفة كانت على رأسها كتب الرحلات إلى جانب جملة من كتب التاريخ والأدب دون إغفال نماذج من الإسهامات الرائدة التي قام بها بعض السياسيين المحسوبين على التيار التجديدي الإصلاحية مثل خيرالدين التونسي.

وهو ما يعزز الرأي القائل " أنّ في التراث العربي عشرات من الكتب الأخرى في الوصف الحضاري غير معروفة لدى الغربيين من علماء الأجناس البشرية"<sup>1</sup>، ولعل ما يجب التنبيه إليه في هذا الشأن أنّ هذه الكتابات التي لم يتسع المجال لذكرها جميعا خاصة كتب الرحلات، قد لامست كثير من موضوعات وبؤر التفكير ذات الصلة بالأنثروبولوجيا، من خلال انطوائها على جملة من عناصر التفكير الأنثروبولوجي بشكل غير مقصود ضمن سياق ما يسمى بالأنثروبولوجيا العفوية، ولعل مراد ذلك أنّ الرحلة قد اقترنت خلال فترة طويلة من التاريخ الإسلامي بشكل عام بالمعرفة، ولذا فقد " كانت الرحلة أمرا عاديا وضروريا لتحصيل العلم ونشره، واشتهر من العلماء في هذا المجال العدد الذي لا يحصى، وخاصة أولئك الذين اهتموا بجمع التراث من مصادره، وأولئك الذين عنوا بتدوين العلوم وتقييدها، وتتبع كل حالة لها صلة بها"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - كارلتون.س.كون: المرجع السابق، ص 292.

<sup>2</sup> - التاجوري محمد التريكي: الرحالة العرب والمعرفة، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الهيئة القومية للبحث العلمي، ليبيا، السنة الثامنة، العدد الثامن، 2002، ص 387.

ثالثا- الفضاء المغربي ميدان خصب للبحث الأنثروبولوجي خلال مرحلة الاحتلال:

إن الإلمام بحيثيات هذه المسألة يقودنا إلى جملة من الحقائق مفادها تشابك الأبعاد التاريخية بالسياقات الفكرية التي واكبت تشكّل المعرفة الأنثروبولوجية ضمن الفضاء المغربي خلال مرحلة الاحتلال، والذي هو رهين للأحداث التاريخية الكبرى التي ميزت المنطقة المغربية خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من جهة، كما هو رهين للسياق الفكري الذي واكبت تشكّل المعرفة الأنثروبولوجية بشكل عام، فبمقابل توفّد الحملات الاستعمارية التي انطلقت من الضفة الشمالية للمتوسط، فإن أهم ما ميز المنطقة المغربية خلال هذه المرحلة هو انكماش السلطات المركزية القائمة أو ضعفها وتلاشيها النهائي كما حصل في الجزائر، وهو ما أفضى إلى وقوع البلدان المغربية تحت الاحتلال أو الانتداب، فكانت البداية باحتلال الجزائر سنة 1830، ثم فرض الحماية على تونس سنة 1881، وانتهاء بالحماية على المغرب الأقصى سنة 1912.

والجدير بالإشارة أن هذا الحراك التاريخي الذي عرفته المنطقة المغربية خلال هذه المرحلة والمتمثل في الحملات الاستعمارية، قد واكبه حراكا فكريا أذن بميلاد الأنثروبولوجيا كتخصص قائم بذاته، وهو ما أوقع تشابكا بين الحملات الاستعمارية من جهة والمعرفة الأنثروبولوجية من جهة ثانية، الأمر الذي جعل هذا التخصص المعرفي يندرج ضمن العلوم الاستعمارية بامتياز، "ومن هنا لا يبدو غريبا على الإطلاق أن تترافق فترة ازدهار بعض العلوم الإنسانية ومنها الأنثروبولوجيا، مع فترة التوسع الغربي أولا ثم الأمريكي تاليا باتجاه آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية وأستراليا"<sup>1</sup>.

حيث سعت القوى الاستعمارية الكبرى من وراء توظيف الدراسات الأنثروبولوجية خلال هذه المرحلة إلى فهم الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والتركيبات الإثنية والعرقية للمجتمعات المراد السيطرة عليها، ولذا فقد شجعت الإدارات الاستعمارية الأبحاث الأنثروبولوجية وذلك "للقيام بدراسة ظاهرة التثاقف وعملية تأثير الثقافة الغربية على الدول المستعمرة، ومحاولة معرفة درجة

1- جيرار لكلرك، الأثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1990، ص 7.

التأقلم أو المقاومة للثقافة المستوردة من طرف المستعمر"<sup>1</sup>، ويمكن على ضوء المعطيات المرتبطة بمسار تشكّل المعرفة الأنثروبولوجية بالفضاء المغربي خلال فترة الاحتلال، إدراجه ضمن مرحلتين أساسيتين:

### 1- مرحلة الدراسات الأنثروبولوجية غير المتخصصة:

لقد شكّل الفضاء المغربي منذ البدايات الأولى لظهور الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته، والذي تزامن مع موجة الاحتلال التدريجي للمنطقة ميدان بحث خصب، حيث كانت البداية بأنثروبولوجيا الهواة غير المتخصصةين ضمن مشروع الأنثروبولوجيا الاستعمارية، والتي تناغمت والملابسات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي ميزت المنطقة المغربية، وبحكم وقوع أغلب أجزاء المنطقة المغربية تحت سلطة الاحتلال الفرنسي، باستثناء أجزاء من المغرب الأقصى التي كانت من نصيب الاحتلال الإسباني، فقد كان ذلك سببا مباشرا في هيمنة رصيد الدراسات الأنثروبولوجية الفرنسية على المنطقة بشكل لافت، وكان نصيب الجزائر من هذه الدراسات خلال هذه المرحلة، يفوق بكثير نصيب نضيرتها تونس والمغرب الأقصى بحكم أسبقيتها في الوقوع تحت قبضة الاحتلال.

ولعل من ضمن مميزات تلك الدراسات الأنثروبولوجية خلال المراحل الأولى من الاحتلال، أنّ معظمها أنجز من قبل ضباط عسكريين أو موظفين تابعين للمؤسسة العسكرية، حيث "أنّ الضباط ورجال الإدارة كانوا من الأوائل الذين أنجزوا الدراسات الإثنوغرافية"<sup>2</sup>، وبالتالي فإنّ كتاباتهم قد هيمنت عليها ذهنية العسكري وليس المثقف، حيث كانوا يفعل انتمائهم إلى المؤسسة العسكرية، غير متخصصين في الدراسات الاجتماعية بشكل عام والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص، ولم

2- مولاي الحاج مراد، "مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية"، وقائع الملتقى الدولي "أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر"، المنعقد

ببمبمون أيام 22، 23، 24 نوفمبر 1999، تنسيق: أ.نذير معروف، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2002، ص 21-22.

1-Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, P 20.



تظهر الكتابات والدراسات المتخصصة في هذا الشأن إلا في مرحلة لاحقة، ومن جهة أخرى فإن تلك الدراسات الأنثروبولوجية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد غلب عليها الطابع الإثنوغرافي، على اعتبار أنها تميزت بالعمل الوصفي التجميعي للمعطيات الاجتماعية والثقافية، من خلال الاحتكاك المباشر بالمجتمعات المدروسة، وهي سمة لازمت أغلب الدراسات التي تم إنجازها خلال هذه المرحلة على مستوى كامل الفضاء المغربي.

وقد تركّزت الأعمال الإثنوغرافية المنجزة خلال تلك الفترة على دراسة البنى الاجتماعية والتنظيمات الدينية على وجه الخصوص، بحكم تميز النسيج الاجتماعي ضمن الفضاء المغربي بشكل عام بتركيبته القبلية، ومن جهة ثانية لكون الطرق الصوفية والزوايا قد مثلت أحد أهم التنظيمات التي أدت أدوارا تاريخية رائدة في تأطير الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات المغربية، بما حازته تلك التنظيمات الدينية من سلطة رمزية فاعلة اكتسبتها عبر الشرعية الدينية والتاريخية<sup>1</sup>، وهو ما يظهر بشكل واضح من خلال التمعن في المنحى العام الذي سلكته تلك الدراسات، وكذا المحاور التي اشتغلت عليها، من منطلق أن الغاية الأساسية من تلك الدراسات هو مراكمة وتجميع المعلومات عن المجتمعات المغربية في كل المجالات، لأن الهدف هو معرفة خصوصيات تلك المجتمعات قصد السيطرة عليها، سعيا لتسهيل عملية الاحتلال، من خلال معرفة نقاط الضعف وليس البحث العلمي البريء أو معرفة المجتمع كفضول.

ففي الجزائر وباعتبارها أولى البلدان المغربية التي كانت فاتحة لمشروع الاحتلال الفرنسي، فقد تم توجيه الأنظار " نحو المناطق البكر كمنطقة القبائل والأوراس وميزاب، ثم توغلوا في الصحراء بقدر ما سمحت به الظروف"<sup>2</sup>، كما نالت تونس هي الأخرى نصيبها من الدراسات الإثنوغرافية خلال هذه المرحلة، والتي انصبّت على موضوعات ومحاور لا تكاد تختلف عن تلك التي تم التركيز

<sup>1</sup> - يمكن الاطلاع على أطروحة الدكتوراه المنشورة لـ "Alain Mahé" حول منطقة القبائل الجزائرية على سبيل المثال، وهذا بغرض معرفة التفاصيل الدقيقة حول المنحى العام الذي سلكته الدراسات الأنثروبولوجية خلال المرحلة الأولى، أنظر:

-Mahé Alain: Histoire de la Grande Kabylie –Anthropologie historique du lien social dans les Communautés villageoises-, Editions Bouchene, 2ème Éditions, Paris, 2006, PP 165-203.

<sup>2</sup> - Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, p 20.

عليها في الجزائر وكذا في المغرب الأقصى، وقد انصبت بوجه خاص على مناطق الجنوب والوسط التونسي، وهي أعمال تمثلت في "تقارير ومونوغرافيات ضباط الشؤون الأهلية"<sup>1</sup>، كما مثل المغرب الأقصى أيضا أحد الفضاءات الأكثر جاذبية والمختبر الأكثر نشاطا ضمن الدراسات الإثنوغرافية الأولى خلال هذه المرحلة، وهو ما مثله الرصيد الكبير من الأعمال "حول المجموعات القبلية والزوايا والأرياف والفلاحة"<sup>2</sup>، وقد كُلتت تلك المجهودات بظهور "نتاج علمي ضخم طفت على سطحه بعض الأعمال البالغة الأهمية، حيث أصدرت الجمعيات العلمية في الجزائر نشرات، أُضيفت إليها مجلات علمية محلية مثل المجلة الإفريقية التي تأسست سنة 1856، والمجلة التونسية 1894، وهسبريس في المغرب سنة 1921"<sup>3</sup>.

ولعل من الملاحظات التي تسترعي الانتباه حول الأعمال الإثنوغرافية المنجزة خلال هذه المرحلة، أنه "برغم الكفاءة العلمية التي تتميز بها تلك الدراسات والنتائج القيمة التي قدمتها، غير أنها تبقى مشيرة للجدل، وذلك لكون تلك المعارف العلمية وجدت نفسها أسيرة ظواهر الاحتلال والسيطرة على الآخر والنظرة إليه"<sup>4</sup>، حيث يعود الفضل إلى تلك الكتابات في اكتشاف وتدوين وحفظ رصيد ضخم من المعارف ذات الصلة بالتراث التاريخي والثقافي للمجتمعات المغاربية خلال تلك المرحلة، بحكم تميز المجتمعات المغاربية في عمومها بنزوعها نحو تغليب الشفوي على المكتوب لدى عامة الفئات الاجتماعية، مع وجود استثناء صنعته بعض الأسماء على قلتها، من خلال انكبابها على تدوين بعض المعارف ذات الصلة بالعلوم النقلية وعلى رأسها المعارف الدينية بوجه خاص، ومن هنا فليس غريبا أن نجد الباحثين المعاصرين المنتمين على الفضاء المغاربي، برغم انخراطهم ضمن مشروع نقد تلك الدراسات، فإنهم يشيدون بأهميتها المعرفية، فهي حسب رأي احد هؤلاء الباحثين

<sup>1</sup> - بوطالب محمد نجيب: المرجع السابق، ص 74.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه: ص 68.

<sup>3</sup> - Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, p 20.

<sup>4</sup> - Ibid, p 20.

على سبيل المثال "... فتحت المجال أمامنا لرسم صورة عن أنفسنا بمعرفة ماضيها الاجتماعي والسياسي والثقافي والوقوف على أبرز ما عرفته المنطقة من تحولات ميزت القرنين الماضيين"<sup>1</sup>.

2- مرحلة الدراسات الأنثروبولوجية المتخصصة من بداية الثلاثينيات إلى غاية الاستقلال:

برغم وجود تضارب واختلاف شديدين حول الفترة الزمنية التي تمثل البداية الفعلية للدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية المتخصصة في الفضاء المغربي، غير أن تتبع الحراك العام لتلك الدراسات يجعلنا نعتبر سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين بمثابة البداية الحقيقية لتلك الدراسات والأبحاث، ولعل من بين المؤشرات التي تصب في هذا الاتجاه، تلك المتعلقة بتأسيس معهد الإثنولوجيا بباريس سنة 1927 ، والذي جاء بعد مخاض عسير، صاحبه نقاش حاد بين النخب الفرنسية حول التسمية التي يجب اعتمادها- أنثروبولوجيا أو إثنولوجيا- ، وكذا الاتجاهات الفكرية التي يجب أن تبني عليها هذه المعرفة، إذ " لم تعرف الإثنولوجيا في فرنسا إلا في وقت متأخر، ويعود للفلاسفة السوسولوجيين الفضل في إكسابها حق الاندراج في الجامعة منذ منعتف القرن"<sup>2</sup> -العشرين-، وللباحث الفرنسي "مارسيل موس Mauss Marcel" الفضل في تأسيس ما عرف بمعهد الإثنولوجيا في فرنسا منذ سنة 1927<sup>3</sup>.

مع أن هذا لا ينف وجود كتابات ذات طابع أنثروبولوجي أنجزها باحثون فرنسيون خلال الفترة السابقة لسنة 1927 ، غير أن هذه الكتابات كانت واقعة تحت هيمنة علم الاجتماع، وبتعبير آخر كانت موجودة تحت المظلة السوسولوجية، لأن المعرفة الأنثروبولوجية الفرنسية قد تميزت بنزوعها نحو المعرفة السوسولوجية، ولذلك نلمس التضارب في توظيف المصطلحات لدى معظم الدارسين خلال الحديث عن الدراسات الفرنسية للشعوب الأخرى والتي من ضمنها الشعوب المغربية،

<sup>1</sup> - الجويلي محمد الهادي: مجتمعات للذاكرة مجتمعات للنسيان، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 21.

<sup>2</sup> -إيرني بيار: إثنولوجيا التربية، ترجمة عدنان الأمين، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1992، ص 68.

<sup>3</sup> - Lombard Jacque: Introduction à l'ethnologie, Editions Armand Colin, Paris, 1999, P 10.

فمنهم من يميل إلى تسميتها "السوسولوجيا الكولونيالية"<sup>1</sup>، ومنهم من يسميها الإثنوغرافيا تارة والإثنولوجيا تارة أخرى<sup>2</sup>، ومنهم من يسميها الأنثروبولوجيا فقط<sup>3</sup>.

وبمقابل الحراك الفكري الذي حدث في فرنسا خلال نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن العشرين والمرتبطة بإرساء قواعد المعرفة الأنثروبولوجية، فقد تزامن ذلك وتأسيس معهد الدراسات الإستشرافية بجامعة الجزائر خلال بداية الثلاثينيات<sup>4</sup>، والذي أوكلت له مهمة إنجاز الدراسات الخاصة بالبلدان المستعمرة ومن ضمنها البلدان المغاربية، وكذا إعداد الباحثين في التخصصات المرتبطة بالمجالات الحيوية التي تدخل ضمن صميم اهتمامات المعهد، والذي ضم نخبة من الأكاديميين في تخصصات مختلفة ومن ضمنهم ما يسمون وفق التقاليد الفرنسية بالإنثولوجيين، وقد "اتخذت الأعمال التي أنجزت -خلال هذه المرحلة- في الجامعات والمعاهد المحلية طابع الأبحاث المنطقية، مع تقديمها بعض التجديد الذي تجسد على سبيل المثال، في الأعمال عن القانون الإسلامي والقوانين البربرية"<sup>5</sup>.

وعلى نقيض ما وقع خلال المرحلة الأولى غير المتخصصة، حينما تبنت الإدارة الاستعمارية وبوجه خاص المؤسسة العسكرية مهمة توجيه الأبحاث الأنثروبولوجية، فقد كان لتبني الهيئات العلمية لمهمة البحث الأنثروبولوجي، سببا مباشرا في تخلص الدراسات المنجزة خلال هذه المرحلة من نزعتها الاستعمارية، وإضفاء طابع جديد على هذه الدراسات الأنثروبولوجية حول المجتمع المغاربي وثقافته، والتي اندرجت ضمن أهداف لم تخرج عن سياق البحث العلمي، وهو ما ساهم في ميلاد جملة من الدراسات والأبحاث الشهيرة والتي شكّلت إضافة وسبقا علميا، كما تميزت

<sup>1</sup> - معتوق جمال: علم الاجتماع في الجزائر- من النشأة إلى يومنا هذا- منشورات دحلب، الجزائر، ط1، 2006، ص 33.

<sup>2</sup> - Lucas Philippe et Vatin Jean Claude: l'Algérie des anthropologues Paris, François Maspero, 1975.

<sup>3</sup> - جيرار لكلك: المرجع السابق، ص 106-107.

<sup>4</sup> - معتوق جمال: المرجع السابق، ص 38.

<sup>5</sup> -Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, p 21.

بخضوعها للمنهج العلمي، بما لا مسته من بؤر تفكير جديدة في حقل الممارسة الأنثروبولوجية حول الفضاء المغربي.

حيث تعد أعمال " مونتاني Montagne " فاتحة لهذا التوجه التجديدي، وقد ركز هذا الأخير على دراسة قبائل الأطلس الكبير سنة 1930<sup>1</sup>، والتي جاءت من منظور مغاير تماما لما كان موجودا على مستوى الدراسات السابقة، وقد انصبت تلك الدراسة التي أنجزها "مونتاني" على "الآليات السياسية الفاعلة في المجتمعات القبلية"<sup>2</sup>، وهو ما جعل تلك الدراسات التي قام بها هذا الأخير تُشكّل أرضية للدراسات اللاحقة، خصوصا مع ولوج الأنثروبولوجيين الأنجلوساكسونيين مجال البحث بالمغرب خلال مرحلة الاستقلال، والتي تمثلت على وجه الخصوص في الأبحاث التي باشروها "أرنست غيلنر Ernest Gellner".

كما تجسدت أيضا في أعمال المفكر "جاك بيرك J. Berque"، على اعتبار أن هذا الأخير يمثل أحد الوجوه البارزة التي قامت "بتجديد تلك الدراسات بعد الحرب العالمية الثانية"<sup>3</sup>، من خلال إحياء البحث في موضوع البنى الاجتماعية في الفضاء المغربي وعلى رأسها موضوع القبيلة، ولكن بشكل مغاير لما جاء في الدراسات السابقة<sup>4</sup>، وقد "كان أول من نبه إلى خطر اعتبار قبائل شمال إفريقيا بغير ماهي عليه"<sup>5</sup>، وهنا تكمن بصمات بيرك في تخليص دراساته من المفاهيم والتصورات المسبقة، ومن هنا يبدو أن "معرفة الأنثروبولوجي الفرنسي جاك بيرك العميقة بإفريقيا الشمالية قد جنبته السقوط في فخ الإستشراق"<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - بنسالم ليليا: التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير - حصيلة وتقييم - ، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2007، ص 19.

<sup>2</sup>-Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, p 21.

<sup>3</sup>-Ibid, p 21.

<sup>4</sup> - بيرك جاك: في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 2007، ص ص113-125.

<sup>5</sup> - أنجلس روك ماريا: أنثروبولوجية الحياة اليومية في المتوسط، ترجمة حسن بن منصور، دار زرياب للنشر، الجزائر، 2005، ص 97.

<sup>6</sup> - المرجع نفسه: ص 97.

والمعروف عن بيرك انفتاحه على مختلف مناهج العلوم الإنسانية كالمناهج التاريخية وعلم الاجتماع، كما أن "لهذا الأنثروبولوجي - المقصود هو بيرك - ملكة صياغة الإشكاليات التي يمكن أن ينشأ منها التفكير حول التحولات الجارية"<sup>1</sup>، إلى جانب تأثره بأفكار ابن خلدون المبتوثة ضمن مقدمته الشهيرة في قراءاته للمجتمعات المغاربية خلال القرن الرابع عشر الميلادي، ولذا فإن كتاباته حول المجتمعات المغاربية قد استندت إلى رصيد وثائقي ضخم، إلى جانب اعتماده على الملاحظة الأنثروبولوجية بشكل واضح، والتي إنبتت من خلال احتكاكه المباشر بالمجتمعات المغاربية منذ منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين<sup>2</sup>، وهو ما جعل تلك الكتابات تتميز بنكهة علمية خاصة في رصدده للقضايا الاجتماعية والثقافية بالمنطقة المغاربية.

وقد حملت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في طياتها بذور التحول على مستوى الدراسات الأنثروبولوجية المتخصصة بالمنطقة المغاربية، بما حملته من تجديد وانفتاح على مناهج و مواضيع بحث جديدة، والتي جاءت كنتيجة منطقية للتحولات التي عرفتها الدراسات الأنثروبولوجية بشكل عام، وقد توج هذا التحول بدخول وجوه جديدة حقل الممارسة الأنثروبولوجية في المنطقة المغاربية، وما لبثت تلك الوجوه أن شقت طريقها نحو الشهرة والتميز في البحث، "حيث ألهمت العديد من الدراسات الحديثة هؤلاء الباحثين الجدد، والتي انصبت على سبيل المثال على دراسة التنظيمات الاقتصادية التي اهتم بها د. سيدون D. Seddon، والسياسية ج. فافري J. Favret، والدينية ف. كولونا F. Colonna، كما خصص هامش أوسع من تلك الدراسات للبحث في أنماط عيش الشعوب المغاربية الأصلية، وهو ما تجسد في أعمال بيار بورديو P. Bourdieu"<sup>3</sup>، ولاشك أن ما يسترعي الانتباه خلال هذه المرحلة هو دخول الأنثروبولوجيا

<sup>1</sup> - أنجلس روك ماريا: المرجع السابق ص 97.

<sup>2</sup> - للمزيد من الإطلاع على فكر "جاك بيرك"، والصدى الذي تركته كتاباته من المنظور الأنثروبولوجي، حول المنطقة المغاربية يمكن الرجوع إلى الدراسة الآتية:

- ولد خليفة محمد العربي: بيرك المفكر والإنسان - من فرندة إلى سان جوليان - ، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة الجزائرية، السنة العشرون، العددان 110-111، سبتمبر - ديسمبر، 1995، ص 35-49.

<sup>3</sup> - Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, p 21.

الأنجلوساكسونية ميدان البحث ضمن الفضاء المغربي، والذي تزامن وموجة التحرر التي لامست كثير من البلدان المستعمرة، ومن بينها البلدان المغربية التي نالت استقلالها تباعا، غير أن هذا لم يكن سببا في تعطيل الحراك التصاعدي في منحى البحوث الأنثروبولوجية التي استمر الباحثون الأجانب في إنجازها بعد الاستقلال في البيئات الاجتماعية المغربية، وبشكل لافت على وجه الخصوص بالمغرب الأقصى، وبدرجة أقل في تونس، وبشكل محتشم جدا في الجزائر لأنها جوبهت بـ "رد فعل سلبي ضد أي بحث أجنبي داخل التراب الوطني - أي الجزائر- والذي نشأ من جراء ضراوة الحرب الاستعمارية"<sup>1</sup>.

ولعل أهم ميزة انطوت عليها الدراسات الأنثروبولوجية في الفضاء المغربي التي قام بها الباحثون الأجانب بعد الاستقلال هو نزوعها- أي الدراسات الانثروبولوجية- نحو البحث في البيئات والفضاءات العذراء التي لم يسبق للأنثروبولوجيين الأجانب الاشتغال عليها خلال المراحل السابقة لاسيما خلال مرحلة الاحتلال، ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الدراسات المنجزة في البلدان المغربية من قبل الباحثين الأجانب خلال مرحلة الاستقلال قد أفصحت وفق تعبير الباحث المغربي أحمد السعيدي على "قدرة الأنثروبولوجيا المعاصرة على تجاوز هشاشتها وقلقها الأكاديمي وتجديد مطبخها"<sup>2</sup>، حيث نجح التيار الأنجلوساكسوني من خلال دراساته الأنثروبولوجية حول الفضاء المغربي، في فرض منطقته في عملية البحث وافتكاك مكانة مرموقة "حيث قدمت الأنثروبولوجيا الأنجلوساكسونية وخاصة الأمريكية مساهمات ممتازة حول المغرب"<sup>3</sup>، والتي كُلت بناء نظريات قادمة بذاتها في دراسة الثقافات والرموز الثقافية<sup>4</sup>، ومن ضمنها المقاربة التأويلية الرمزية<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - بنسالم ليليا: المرجع السابق، ص 27.

<sup>2</sup> - السعيدي أحمد، المغرب في الأنثروبولوجيا الأمريكية واليابانية محاولة مقارنة، مجلة إضافات، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد التاسع عشر، صيف 2012، ص 50.

<sup>3</sup> - أنجلس روك ماريا: المرجع السابق ص 96.

<sup>4</sup> - للمزيد من التوسع في مساهمات الأنثروبولوجيا الأنجلوساكسونية، يمكن الإطلاع على العمل الجماعي القيم في هذا الموضوع أنظر:

- مجموعة من الأساتذة: الأنثروبولوجيا من البنيوية إلى التأويلية، تنسيق محمد حبيدة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014.

رابعاً- المعرفة الأنثروبولوجية في البلدان المغاربية خلال مرحلة الاستقلال:

لعل من المفارقات الغريبة التي تتصل بالمعرفة الأنثروبولوجية في البلدان المغاربية خلال مرحلة استقلال هذه الأخيرة، هو ضمور ذلك الحراك في المنحى التصاعدي الذي عرفته تلك الدراسات، وما رافقها من نضج وتبلور في المعالم النظرية والسياقات المنهجية المرتبطة بمحاور التفكير ومواضيع البحث، الذي سبق أن عرفته الدراسات الأنثروبولوجية خلال مرحلة الاحتلال، والتي كُلت بإنجاز دراسات رائدة في هذا الشأن.

فبرغم خصوبة الأرضية النظرية وثراء حقل موضوعات البحث الخاص بالمعرفة الأنثروبولوجية في الفضاء المغاربي، فإن السنوات التي أعقبت استقلال البلدان المغاربية لم تحمل في طياتها بذور الانفتاح على هذا الحقل المعرفي الهام بالشكل المطلوب، بل قوبل برفض وتضييق شديدين، وهو ما كان له وقعا سلبيا على المعرفة الأنثروبولوجية بالفضاء المغاربي، والذي أدى إلى انكماش البحث في هذا الحقل المعرفي الهام، كما انعكس على عملية البحث والتأليف، مع وجود استثناء صنعته بعض الأسماء العلمية القليلة، والتي بنت شهرتها بمجهودها الفردي.

1- خلفيات كبح مشروع الأنثروبولوجيا بالبلدان المغاربية بعد الاستقلال:

يبدو من خلال التمعن في الظروف السياسية والاجتماعية التي عرفتها البلدان المغاربية خلال مرحلة الاستقلال، أن هناك جملة من العوامل أدت إلى وأد مشروع الأنثروبولوجيا في هذه البلدان، وساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في كبح الحركية التي كانت قد ميزت المعرفة الأنثروبولوجية خلال مرحلة الاحتلال، والتي نرى إمكانية إدراجها ضمن النقاط الآتية:

أ- الصورة المشوهة عن المعرفة الأنثروبولوجية المرتبطة بالمساعدة على الاحتلال:

<sup>1</sup> - حول المقاربة التأويلية الرمزية أنظر: - غيرتر كليفورد: تأويل الثقافات، ترجمة بدوي محمد، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2009.



لقد ساهمت الصورة المشوهة اللصيقة بالأنثروبولوجيا، باعتبارها من ضمن العلوم التي ساعدت الحملات الاستعمارية بطريقة مباشرة وغير مباشرة<sup>1</sup>، في جميع المناطق المستعمرة خلال العصر الحديث بشكل عام والمنطقة المغاربية على وجه الخصوص، في الإضرار بمكانة المعرفة الأنثروبولوجية ضمن سياق الحقل الأكاديمي في البلدان المغاربية خلال مرحلة الاستقلال، وهو ما أفضى إلى إقصاء الأنثروبولوجيا من فعل التدريس الجامعي، على عكس بقية التخصصات العلمية الأخرى المنتمية إلى عائلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، وقد اندرج ذلك ضمن فعل العمل على التحرر من المعارف التي خدمت المستعمر، ولذا فإنه "في ظل هذه الظروف، وفي نطاق المشروع الوطني هذا احتلت الأنثروبولوجيا موقع الميدان المرفوض"<sup>2</sup>.

وقد تناغم هذا التوجه الهادف إلى إقصاء المعارف التي خدمت الاستعمار من الحقل الأكاديمي على مستوى أغلب البلدان التي خضعت للاحتلال، وليس على مستوى البلدان المغاربية وحسب، ولذا ووفق السياق العام المميز لهذه المرحلة بخصوص المعرفة الأنثروبولوجية، فإنه لم يكن غريبا أن تتضمن توصيات المؤتمر الدولي الذي عقد بالجزائر خلال شهر مارس من سنة 1971 حول "إصلاح وتقنية تعليم العلوم الاجتماعية وإشراكها في التطور الاقتصادي وإعادة هيكلتها"، ضرورة "أن تتخلص العلوم الاجتماعية في البلدان التي استعمرت في القديم من منازعات الماضي الاستعماري، فقد استعملت العلوم الاجتماعية- والمقصود هنا الأنثروبولوجيا- في هذه البلدان بطريقة علمية لتستعبد وتستلب وتزيل الهوية"<sup>3</sup>.

ب- الفهم الخاطئة حول موضوعات البحث الأنثروبولوجي على أنها موضوعات مبتذلة ومتجاوزة:

<sup>1</sup> - حول اقتران الأنثروبولوجيا بالاستعمار أنظر الدراسة القيمة حول الموضوع ل: جزار لكلرك: مرجع سبق ذكره.

<sup>2</sup> - حمودي عبدالله : في إعادة صياغة الأنثروبولوجيا، سلسلة محاضرات مركز الدكتوراه " الإنسان والمجال في العالم المتوسطي" رقم(4)، منشورات كلية

الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2010، ص 12.

<sup>3</sup> -Lucas Philippe et Vatin Jean Claude: op cit, P 278.

لعل من ضمن العوامل التي عززت أيضا التوجه الذي أدى إلى كبح مشروع الأنثروبولوجيا في البلدان المغاربية بعد الاستقلال، تلك الأحكام المسبقة وغير الصائبة التي بنيت على سوء الفهم للمعرفة الأنثروبولوجية، من حيث المحاور والمواضيع التي تدخل ضمن نطاق حقل اشتغال هذه الأخيرة، ومن ضمن جوانب سوء الفهم المتعمقة بالمعرفة الأنثروبولوجية حسب وجهة نظر الأنثروبولوجي المغربي عبدالله حمودي، ذلك الاعتقاد السائد لدى شريحة واسعة من أفراد المجتمع بما فيهم فئات من المتعلمين، بأن الأنثروبولوجيا إنما تهتم بموضوعات مبتذلة ومتجاوزة " كالقبيلة والسلالة والعرف والأمازيغيات وما سمي الفولكلور وحكايات العجائز"<sup>1</sup>.

على اعتبار أن أهم ما ميز المساهمات الأولى في البحوث الأنثروبولوجية خلال مرحلة تشكلها، بالإضافة إلى لجوئها إلى الطابع التعميمي، تميزها بالطرح التقليدي على مستوى المناهج والنظريات، وكذا اتسام أغلب المساهمات حول الثقافة بالطرح الفولكلوري وتغييبها للإشكاليات المعاصرة، لاختراق موضوعات جديدة وإثارة بعض الزوايا المغيبة، والتي تمثلت على وجه الخصوص في دراسة المجتمع البدائي وثقافته، بوصفه الموضوع والمجال المفضل للأنثروبولوجيا التقليدية، إلى جانب الاهتمام بكل ما يرتبط بالثقافات التقليدية وكذا الموضوعات التي تتصل بالرواسب الثقافية وبقايا الثقافات الآيلة للزوال أيضا، وهو ما أفضى إلى تشكيل فهم خاطئة ذات صلة بالمعرفة الأنثروبولوجية بشكل عام باعتبارها من المعارف المبتذلة والمتجاوزة.

إضافة إلى التهيّب من فكرة التطور اللصيقة بالتراث الفكري الأنثروبولوجي، والتي تمس بالقناعات الدينية السائدة في البيئات المغاربية والعربية ككل، حيث يشير الأنثروبولوجي العراقي قيس النوري إلى ذلك بالقول أن هناك " ... من يعتقد مثلا أن هذا العلم يطرح نظريات وآراء لا تنسجم والتراث العربي الفكري والثقافي، ولعل نظرية التطور هي احد مصادر هذا القلق"<sup>2</sup>، ولا شك أن هذه الفهم الخاطئة والمشوهة التي بقيت تلازم الأنثروبولوجيا في البيئات الفكرية العربية بشكل عام بما فيها

<sup>1</sup> - حمودي عبدالله : المرجع السابق، ص12.

<sup>2</sup> - النوري قيس : فرص الأنثروبولوجيا في حركة التطور العربي، مجلة البحرين الثقافية، البحرين، ع 27، يناير، 2001، ص 36.

الفضاء المغربي أيضا، تعد أحد العوامل الجوهرية التي أعاققت عملية اندراج المعرفة الأنثروبولوجية ضمن حيز الممارسة الأكاديمية وإعطائها المكانة التي تليق بأهميتها كفرع معرفي، والتي أفضت دون شك إلى تشكيل قناعة لدى الماسكين بزمام الأمور الأكاديمية في البلدان المغربية بعد الاستقلال، بعدم جدوى اعتماد المعرفة الأنثروبولوجية ضمن الفضاء الأكاديمي، إذ لم يعد من المجدي حسب هذا الاعتقاد " حاجة لهذا العلم نتيجة التحول"<sup>1</sup>.

2- واقع المعرفة الأنثروبولوجية في الفضاء المغربي منذ الاستقلال إلى الزمن الراهن:

إنّ المسعى الهادف إلى استعراض المعرفة الأنثروبولوجية في الفضاء المغربي منذ الاستقلال إلى الزمن الراهن، يجعلنا نقف على جملة من الحقائق ذات الصلة برصيد البحث الأنثروبولوجي المنجز خلال هذه المرحلة، والذي يكمن في تلك المفارقة بين ما أنجزه الباحثون الأجانب وما أنجزه الباحثون المحليون، فإذا كان المشروع الأنثروبولوجي بعد استقلال البلدان المغربية قد تم كبه<sup>2</sup>، مما حال دون اندراجه ضمن حيز الممارسة الأكاديمية في الجامعات المغربية كتخصص علمي قائم بذاته، وهو ما انعكس على الرأس مال البشري المحلي من حيث ضآلة عدد حاملي الشهادات الأكاديمية العليا في الأنثروبولوجيا، باستثناء فئة قليلة من الباحثين الذين كانت لهم فرصة الحصول على شهادات أكاديمية عليا في هذا التخصص، من خلال تكونهم في الجامعات الغربية خاصة في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وبرغم ذلك "يبدو أنّ السلطات الحالية في البلدان المغربية تسعى إلى إعادة إدخال الأنثروبولوجيا سعيا إلى فهم أعمق للمتغيرات الاجتماعية والثقافية التي تجابهها"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - النوري قيس: المرجع السابق، ص 37.

<sup>2</sup> - أنظر: - خلفيات كبح مشروع الأنثروبولوجيا بالبلدان المغربية بعد الاستقلال، ضمن هذه المطبوعة.

<sup>3</sup> -Bonte Pierre et Izard Michel: op cit, P 22.

أ- المعرفة الأنثروبولوجية في المغرب الأقصى:

فأما عن حالة المعرفة الأنثروبولوجية بالمغرب الأقصى، فبرغم تسجيل غياب حضور الأنثروبولوجيا كتخصص أكاديمي معتمد وقائم بذاته يدرّس في الجامعات أو المعاهد المغربية، بعكس التخصصات الأخرى التي تنتمي إلى عائلة العلوم الإنسانية والاجتماعية كالآداب والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، فإنّ هذا لم يكن سببا في تعطيل حركة الإنتاج ضمن تخصص الأنثروبولوجيا، إذ تُسجّل الساحة العلمية المغربية منذ الاستقلال إلى غاية الزمن الراهن بين الحين والآخر وفق منحى تصاعدي بعض الإصدارات الفردية والجماعية المندرجة ضمن سياق الأبحاث والدراسات التاريخية والأدبية والفكرية المختلفة باللغتين العربية والفرنسية، هذه الأخيرة التي تلامس كثير من بؤر التفكير الأنثروبولوجي، وهي إلى جانب ذلك- أي تلك الدراسات والأبحاث- تجنح إلى توظيف المناهج والمقاربات الأنثروبولوجية بشكل مباشر وغير مباشر<sup>1</sup>.

ولعل أهم ما يميز تلك الإصدارات المشار إليها آنفا في الساحة المغربية من الناحية المنهجية والنظرية بشكل عام، هو استفادتها من التراث النظري الضخم في حقل الأنثروبولوجيا الذي تشكل نتيجة الدراسات التي أنجزها الباحثون الأجانب بالمغرب، والتي توجت ببناء نظريات في هذا التخصص، ومثال ذلك تلك الأعمال التي أنجزها أرنست غيلنر، وكليفورد غيرتز، وديل أيكلمان وغيرهم من الأنثروبولوجيين الأجانب الذين تمتعوا بسمعة علمية مرموقة، وهو ما أفضى إلى بروز أسماء محلية لامعة في ميدان الأنثروبولوجيا بالمغرب، حيث تميزت تلك الأسماء بأعمال ذات قيمة علمية معترف بها في ميدان الأنثروبولوجيا على مستوى الساحة العلمية العربية على الأقل، من أمثال عبد الله حمودي<sup>2</sup>، وعبد الأحد السبتي<sup>1</sup>، وحسن رشيق<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - فيما يتعلق بالأبحاث والدراسات التي تم إنجازها بالمغرب الأقصى بعد الاستقلال من قبل الباحثين المغاربة والتي لامست كثير من بؤر التفكير الأنثروبولوجي بشكل معلن وغير معلن، أنظر:

- أبو بكر باقادر وحسن رشيق: الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2012، ص ص 119-209.

<sup>2</sup> - يمثل عبد الله حمودي أحد الأسماء الكبيرة في حقل الأنثروبولوجيا على المستوى المغربي والعربي، وقد تجسد ذلك في مجموعة الأعمال التي أنجزها، ومنها

كما لا يمكن إغفال الدور الذي تؤديه حاليا بعض المراكز والمخابر العلمية بالمغرب الأقصى في دفع حركة التأليف والبحث في مواضيع ذات صلة مباشرة وغير مباشرة بالأنثروبولوجيا، وهو ما يظهر في إصدارات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، وكذا مركز الدراسات الفنية والتعبير الأدبية، مع تسجيل تأسيس مخابر بحث اضطلعت بتنظيم ندوات علمية دولية وورشات نقاش بصفة دورية، وهو ما أهلها إلى طبع عدد من الأبحاث والدراسات الجماعية والفردية التي صبت في بعض محاور وموضوعات البحث الأنثروبولوجي.

#### ب- المعرفة الأنثروبولوجية في الجزائر:

لقد مرت المعرفة الأنثروبولوجية في الجزائر بعد الاستقلال بمرحلتين، ففيما يتعلق بالمرحلة الأولى والتي امتدت من بداية الاستقلال مباشرة -1962- إلى غاية منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، فهي مرحلة لا تكاد تختلف في ملامحها العامة عن نصيرتها -بالمغرب الأقصى وتونس-، إذ اعتبرت الأنثروبولوجيا على وجه الخصوص أحد الميادين المعرفية المرفوضة، استنادا إلى الخلفيات المسبقة التي غذت التوجه الرسمي في إقصاء هذا التخصص من التواجد في الجامعة بشكل مستقل، على عكس بقية التخصصات الأخرى من عائلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولذا فإن الأنثروبولوجيا خلال هذه المرحلة الأولى المشار إليها، لم تنل الاهتمام كمادة دراسية في الجامعة الجزائرية "وبقيت كامنة لا تظهر إلا في مقاربات ثقافية لدراسة الظواهر السوسولوجية"<sup>3</sup>.

على سبيل المثال: - الشيخ والمريد، الضحية وأقنعتها، موسم حج في مكة.

<sup>1</sup> - يحضى عبد الأحد السبتي بشهرة واسعة لدى المهتمين بالأنثروبولوجيا التاريخية ضمن الفضاء المغاربي، لما يقوم به من دور رائد في هذا الحقل المعرفي، منها على سبيل المثال ترجمة عدد من الإصدارات إلى اللغة العربية، وكذا الإشراف على عدد من الدراسات والإصدارات الجماعية في هذا المجال.

<sup>2</sup> - تشهد لساحة العلمية المغاربية بروز كتابات حسن رشيق، كواحدة من المساهمات التي تنطوي على بؤر تفكير أنثروبولوجية جديرة بالتبويه، من ذلك

مثلا دراسته الشهيرة "سيدي شمهروش".

<sup>3</sup> - مولاي حاج مراد: المرجع السابق ص 22.

وقد كانت سنوات منتصف الثمانينيات من القرن الماضي فاتحة عهد جديد على المعرفة الأنثروبولوجية بالجزائر، إذانا بتدشين المرحلة الثانية والتي استمرت إلى غاية الزمن الراهن، والتي تميزت بالانفتاح التدريجي على المعرفة الأنثروبولوجية وفق منحى تصاعدي، وقد جاء هذا الانفتاح التدريجي والحذر على المعرفة الأنثروبولوجية نتيجة المطالب المتنامية التي ما لبثت تطرح من قبل نخبة من الأكاديميين، وكذا من قبل بعض الجمعيات الفاعلة في الحقل الثقافي، حيث جاء الترخيص بتأسيس المعهد الوطني للثقافة الشعبية بتلمسان، وذلك استنادا إلى مرسوم صادر في 18 أوت 1984<sup>1</sup>، وظل اهتمام المعهد منصبا فقط على تدريس الثقافة الشعبية لمدة ناهزت ست سنوات تقريبا، غير أنه مع بداية سنة 1990، جاء الاعتراف "بالأدب الشعبي كاختصاص قائم بذاته ثم شعبة الأنثروبولوجيا"<sup>2</sup>.

وقد توجّج الانفتاح على المعرفة الأنثروبولوجية بالجزائر خلال منتصف التسعينيات بتأسيس المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهران، والذي تم إلحاقه بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، وأسندت له مهمة البحث في هذا الاختصاص، ثم توسع نشاط هذا المركز إلى تكوين باحثين في الاختصاص للحصول على شهادات أكاديمية عليا في الأنثروبولوجيا ممثلة في شهادتي الماجستير والدكتوراه، وهذا بالشراكة مع بعض الجامعات الوطنية، وما لبثت المعرفة الأنثروبولوجية في الجزائر تتوسع شيئا فشيئا من خلال فتح أقسام الأنثروبولوجيا بعدد من الجامعات الجزائرية بغرض التكوين سواء في مرحلة التدرج أو ما بعد التدرج خلال السنوات الأخيرة.

ج- المعرفة الأنثروبولوجية في تونس:

لا تكاد وضعية المعرفة الأنثروبولوجية في تونس من حيث ملامحها العامة، منذ الاستقلال إلى الزمن الراهن تختلف كثيرا عن حالة المغرب الأقصى التي أتينا على ذكرها آنفا، فبرغم انفتاح

<sup>1</sup> - سنوسي صليحة: إحصاء مناقشات رسائل الدكتوراه والماجستير بقسم الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، مجلة التراث، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا

1 لاجتماعية والثقافية، وهران، العدد الخامس، 2005، ص 86.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه: ص 86.

الجامعة التونسية منذ تأسيسها سنة 1958، بشكل لافت على طرائق ومناهج التدريس الغربية، وكذا استقطابها لعدد من الأسماء اللمعة من الباحثين الأجانب للتدريس بها في مختلف التخصصات، إلا أن المعرفة الأنثروبولوجية بتونس لم تحض بالاهتمام الكافي، مما حال دون تشكيلها كتخصص أكاديمي قائم بذاته يدرس ضمن الجامعة، وهذا بفعل جملة من العوامل التي استند إليها الماسكون بزمام الأمور الأكاديمية في استبعاد الأنثروبولوجيا من التدريس خلال مرحلة الاستقلال<sup>1</sup>، وهي عوامل تكاد تكون متشابهة على مستوى الفضاء المغاربي بشكل خاص والعربي على وجه العموم.

غير أن غياب المعرفة الأنثروبولوجية كتخصص قائم بذاته عن حيز الممارسة الأكاديمية بالجامعات التونسية، لم يمنع الباحثين التونسيين من الانفتاح على المعرفة الأنثروبولوجية وما تحوزه من منظومة منهجية ومقاربات نظرية بشكل معلن وغير معلن، وقد تجسد ذلك فيما تشهده الساحة الثقافية التونسية من إصدارات فردية وجماعية في مختلف حقول الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي تنزع إلى توظيف المقاربات والمناهج الأنثروبولوجية بشكل لافت، خاصة في مجال الأنثروبولوجيا التاريخية، والأنثروبولوجيا الثقافية، وهو ما كشف عن تعطش الساحة الأكاديمية التونسية إلى المعرفة الأنثروبولوجية، وقد كان ذلك سببا وجيها أدى إلى الانفتاح الجزئي على هذا التخصص، حيث أضحت الأنثروبولوجيا حاليا في الجامعات التونسية تدرس كمقاييس في بعض فروع تخصصات الحضارة والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

ولاشك أن وراء هذا الانفتاح التدريجي على المعرفة الأنثروبولوجية هو وجود بعض الكفاءات العلمية من حاملي شهادات عليا في هذا التخصص من الجامعات الأوربية، ومن فرنسا خاصة، وكذا الأنشطة والتظاهرات العلمية المتنامية التي تضطلع بها مراكز ووحدات البحث المختلفة، ومن ضمنها على سبيل المثال لا الحصر تلك الأنشطة التي كان يقوم بها "مركز البحوث والدراسات

<sup>1</sup> - سبق وأن أشرنا إلى تلك العوامل فيما تقدم من هذه المطبوعة.

الاقتصادية والاجتماعية" بتونس<sup>1</sup> ، ووحدة بحث " أنثروبولوجيا الثقافة العربية والمتوسطة" بجامعة منوبة<sup>2</sup> ، وكذا ما تقوم به بعض الجمعيات الثقافية من نشاط مثل "الجمعية التونسية لعلم الأنثروبولوجيا"<sup>3</sup>، والتي تضم ضمن صفوفها نخبة من الأكاديميين.

<sup>1</sup> - اضطلع مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بتونس بجملة من الأنشطة العلمية التي صبت في سياق خدمة المعرفة الأنثروبولوجية، منها تنظيم ندوات دولية على إنفراد أو بالتعاون مع بعض الأقسام التابعة لكليات الجامعة التونسية، وكذا طبع بعض الدراسات ذات الصلة بموضوعات الأنثروبولوجيا، وقد جاءت هذه المنشورات ضمن سلسلة الأنثروبولوجيا- الإثنولوجيا، وهي على النحو الآتي:

أ - Terrains et savoirs actuels de l'anthropologie, Série anthropologie- ethnologie, N1, 2007.

ب- إصدار كتاب مترجم بعنوان "الحلاوة والسلطة"، سلسلة الأنثروبولوجيا-الإثنولوجيا، عدد 2، 2007.

ج- ندوة الأنثروبولوجيا التاريخية المكتسبات والآفاق، سلسلة الأنثروبولوجيا-الإثنولوجيا، عدد 3، 2010.

<sup>2</sup> - يرأسها الأكاديمي محمد الجويلي ، المعروف بتخصصه في الأنثروبولوجيا، وله مجموعة من المؤلفات وكذا بعض الترجمات.

<sup>3</sup> - يرأسها الأكاديمي حسن شباني من جامعة المنستير.



الخاتمة:

يمكن أن نخلص في نهاية هذه المطبوعة إلى مجموعة من النتائج، نرى إمكانية إدراجها على النحو الآتي:

- تنطوي عملية البحث في مسار تشكيل المعرفة الأنثروبولوجية ضمن الفضاء المغربي على جملة من المصاعب ، ذات الصلة بشساعة الموضوع وتشعبه، وهو ما يجعل من المتعذر ملامسة جميع تفاصيله ضمن مداخلة محدودة الصفحات، لأنّ هذا الموضوع حسب وجهة نظرنا، لم ينل حظه من البحث والإثراء على المستوى القطري فما بنا على المستوى المغربي، وهو بهذا يحتاج إلى مجموعة من البحوث والدراسات المعمقة لسبر أغواره، استنادا إلى الرصيد الوثائقي الضخم المتناثر ضمن أرشيفات ومكتبات الجامعات المغربية، وكذا ضمن أرشيفات ومكتبات ما وراء البحار.

- برغم أنّ المعرفة الأنثروبولوجية في البلدان المغربية بعد الاستقلال كانت ضحية التصورات المسبقة ، والفهوم الخاطئة اللصيقة باهتماماتها، وهو ما أفضى إلى إحداث قطيعة مع هذه المعرفة والتي انعكست على واقع الممارسة الأنثروبولوجية في البلدان المغربية، ومع ذلك ينبغي إدراك الأهمية العلمية لهذا التخصص، وما يمكن أن يقدمه في مسيرة التنمية السوسيوثقافية، ورصد راهن المجتمع والتنبؤ بالتغيرات المستقبلية.

- مهما كانت درجة ارتباط المعرفة الأنثروبولوجية بمشروع الاحتلال، فإنّ تلك الدراسات التي أنجزت حول الفضاء المغربي، قد وفّرت للباحثين المحليين المعاصرين مادة معرفية لا يمكن إنكار أهميتها وقيمتها العلمية، بغرض انجاز بحوث ودراسات حول المجتمعات المغربية في الزمن الراهن، وكذا بلورة كثير من التصورات والرؤى الجديدة، وملامسة عدد من بؤر التفكير في هذا الحقل المعرفي الهام، بالاستناد إلى الإرث النظري الضخم الذي يعود إلى تلك الدراسات.

قائمة المراجع:

أولا: قائمة المراجع باللغة العربية:

1- الكتب:

- 1- أبو بكر باقادر وحسن رشيق: الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2012.
- 2- أنجلس روك ماريا: أنثروبولوجية الحياة اليومية في المتوسط، ترجمة حسن بن منصور، دار زرياب للنشر، الجزائر، 2005.
- 3- إيرني بيار: إثنولوجيا التربية، ترجمة عدنان الأمين، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1992.
- 4- بلحسن عمّار: أنتلجنسيا أم مثقفون، دار الحدّثة للطباعة والنّشر، بيروت، ط1، 1986.
- 5- بنسالم ليليا: التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير - حصيلة وتقييم-، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبّتي و عبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط2، 2007.
- 6- بوسماحة عبد الحميد: رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، الجزء الأوّل، الجزائر، دار السبيل للنّشر والتوزيع، 2008.
- 7- بوطالب محمّد نجيب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2002.
- 8- بريك جاك: في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا، ضمن كتاب الأنثروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبّتي و عبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط2، 2007.
- 9- الجبّاي علي عبد الله: الفكر الأنثروبولوجي في التّراث الفكري العربي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1996.
- 10- الجويلي محمّد الهادي: مجتمعات للذاكرة مجتمعات للنسيان، سراس للنّشر، تونس، 1994.

- 11- جغلول عبد القادر: مقدّمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، لبنان، دار الحداثة للنشر، ط2، 1988.
- 12- جيرار لكرك: الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1990.
- 13- الخوري فؤاد إسحاق: مذاهب الأنثروبولوجيا وعبقريّة ابن خلدون، دار السّاقى، بيروت، ط1، 1992.
- 14- سعيدوني ناصرالدّين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر- العهد العثماني-، الجزائر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، 1984.
- 15- شمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن عبد الله اللوّاتي الطّنجي: رحلة ابن بطّوطة المسمّاة تحفة النظّار في رائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدّم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التّازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، المجلد الأوّل، 1997.
- 16- شوقي ضيف: الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت.
- 17- عمارة علاوة: دراسات في التّاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2008.
- 18- غانم محمّد الصّغير: التّوسّع الفينيقي في غربي البحر الأبيض المتوسّط، الجزائر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، 1992.
- 19- غيرتز كليفورد: تأويل الثقافات، ترجمة بدوي محمّد، بيروت، المنظّمة العربيّة للترجمة، ط1، 2009.
- 20- كارلتون.س. كون: أنثروبولوجيا للعرب، مؤتمر الثقافة الإسلاميّة المنظّم بجامعة برنستون، جمع وتقديم خلف الله محمد، الصادر ضمن كتاب الثقافة الإسلاميّة والحياة المعاصرة، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ط2، 1962.
- 21- كوش دنيس: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعيّة، ترجمة منير السّعيداني، مراجعة الطّاهر لّيب، بيروت، المنظّمة العربيّة للترجمة، ط1، 2007.

- 22- مجموعة من الأساتذة: الأنثروبولوجيا من البنيوية إلى التأويلية، تنسيق محمد حبيدة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014.
- 23- معتوق جمال: علم الاجتماع في الجزائر- من النشأة إلى يومنا هذا-، منشورات دحلب، الجزائر، ط1، 2006.
- 2- المجلات:**
- 1- أحمد علي إسماعيل: مراجعة في كتاب ابن بطوطة، رحلة مسلم من القرن الرابع عشر لروس دون، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، خريف 1987.
- 2- التاجوري محمد التريكي: الرحالة العرب والمعرفة، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الهيئة القومية للبحث العلمي، ليبيا، السنة الثامنة، العدد الثامن، 2002.
- 3- السعدي أحمد، المغرب في الأنثروبولوجيا الأمريكية واليابانية محاولة مقارنة، مجلة إضافات، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد التاسع عشر، صيف 2012.
- 4- سنوسي صليحة: إحصاء مناقشات رسائل الدكتوراه والماجستير بقسم الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، مجلة التراث، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، العدد الخامس، 2005.
- 5- السيد أحمد حامد: تأثيرات ابن خلدون في الأنثروبولوجيا الاجتماعية - قراءة أنثروبولوجية للمقدمة-، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، خريف 1987.
- 6- شبّاني حسن: أفكار متعمّقة عن تاريخ علم الأنثروبولوجيا، ترجمة طارق راشد عليان، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 173، نوفمبر، ديسمبر، 2013.
- 7- النوري قيس: فرص الأنثروبولوجيا في حركة التطور العربي، مجلة البحرين الثقافية، البحرين، ع 27، يناير، 2001.

8- ولد خليفة محمد العربي: بريك المفكر والإنسان - من فرندة إلى سان جوليان-، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة الجزائرية، السنة العشرون، العددان 110-111، سبتمبر- ديسمبر، 1995.

### 3- أعمال الندوات و المنتقيات:

1- حمداوي محمد: القرابة والسلطة عند ابن خلدون-البذور الجنينية لأنثروبولوجيا سياسية-، الملتقى الوطني حول "مستقبل الأنثروبولوجيا في الجزائر"- بتيميمون، في 22، 23، 24، نوفمبر 1999-، وهران، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، 2002.

2- محمودي عبد الله: في إعادة صياغة الأنثروبولوجيا، سلسلة محاضرات مركز الدكتوراه " الإنسان والمجال في العالم المتوسطي" رقم(4)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2010.

3- مولاي الحاج مراد، "مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية"، وقائع الملتقى الدولي "أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر"، المنعقد بتيميمون أيام 22، 23، 24 نوفمبر 1999، تنسيق: أ.نذير معروف، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2002.

### 3- الرسائل الجامعية:

1- غانم محمد الصغير: المساهمة الحضارية البونوية في المملكة النوميديّة، أطروحة دكتوراه دولة غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية، 1995-1996.

ثانيا: قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

### 1- الكتب:

1- Auzias, jean- marie: **L'anthropologie Contemporaine**, Paris, Puf, 1<sup>er</sup> édit, 1976.

2- Lombard Jacque: **Introduction à l'ethnologie**, Editions Armand Colin, Paris, 1999.

- 3- Lucas Philipe et Vatin Jean Claude: **l'Algérie des anthropologues**, Paris, François Maspero, 1975.
- 4- Mahé Alain: Histoire de la Grande Kabylie –**Anthropologie historique du lien social dans les Communautés villageoises-**, Editions Bouchene, 2ème Éditions, Paris, 2006.
- 5-**Terrains et savoirs actuels de l'anthropologie**, Série anthropologie-ethnologie, N1, 2007.

**2 – المعاجم والقواميس:**

- 1-BontePierre et Izard Michel: **Dictionnaire de l'ethnologie et l'anthropologie**, Editions Puf, 2<sup>ème</sup> Éditions, Paris, 2002.